غواية روح

- اسم الكتاب: غواية روح
- اسم المؤلفة : عبير العطار
- المقاس: 14×20
- الناشر: دار المفكر العربي
- لوحة الغلاف إهداء من الفنانة التشكيلية المصرية ماجدة رمزي×
- التدقيق اللغوي: مكتب علاء شكر للتدقيق اللغوي
- التنسيق الداخلي: أحمد بلال
- عدد الصفحات: 206
- رقم الإيداع: 2022/11465
- الترقيم الدولي: 9 -46- 6956 - 977 - 978

- حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
- لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه أو نسخه بأية طريقة إلا بإذن كتابي مسبق من الناشر

دار المفكر العربي للطباعة والنشر

غواية روح

عبير العطار

إهداء

إلى الباحثين عن حقيقة الأمان،

الراغبين في الحياة وهم موتى،

العازفين عن تبنِّي الأمل،

المتشوقين للصراع دون ضرر..

أهديكم ورد أفكاري.

عبير العطار

الإفراج

لم يكن هناك أحد بانتظار "صلاح" لحظة خروجه من السجن المركزي بالدوحة، تضيق عيناه من أشعة شمس أغسطس الحارقة والمحتجبة خلف نظارته الطبية القديمة بعدساتها البيضاوية لعام ألفين وأربعة وعشرين، يخطو متثاقلا بقامته الناحلة متأملا ما حوله بحذر، نزع عن نفسه حمل السنين العجاف، زفر طويلا وهو يذكر لحظة اقتياده يوم الثاني من أبريل عام ألفين وأربعة عشر والتي غمرت حياته بالظلام، عاش خلالها مرارة الفكرة أن الداخل لهذا السجن مفقود والخارج منه مولود إن كتب له القدر عمرا جديدا، قلقا لدرجة سماع صوت تصاعد أنفاسه ودقات قلبه التي غلب ضجيجها على ما يحيط به فقد دفع ثمنا باهظا من عمره داخل هذا المبنى، يمسك بحقيبة بسيطة مهترئة على كتفه بها بعضٌ من ماضيه مضافا لها همومه المثقلة بمسؤولياته المؤجلة تحوي أغراضه ودفتر مذكراته، يلبس قميصا أزرقَ متسعا بدا أنه يليق به منذ زمنٍ طويل كان يُعترف فيه بقيمة عضلاته ويخفي تحتها آثارا قاسية، بنطاله الأسود يشده بحزامٍ عن آخره، يغطي كامل رأسه بقبعة يعتز

بها رغم تغير ألوانها مخفيا شعره المتساقط صلعا من الأمام، لكنه من الخلف أطاله وضفّره مع قصص سجنه على شجرة بياضه ليصل إلى منتصف ظهره متذكرا كل أنة حزن مر بها؛ ثم ذقنه البيضاء التي احتلت أغلب المساحات في وجهه الذي لا يلتحم وشاربه الأسود وكأنه يعكس مساحات الصراع التي احتلت حياته.

تلفت حوله بخوف يبحث عن إجابة لسؤاله: أين ستكون وجهته وقد تبرأ منه الجميع؟ كيف سيسافر وما هي إجراءات ترحيله عن البلاد؟ تشويش يملأ روحه وتلاحق للأفكار، فقرر مبدئيا الفرار من المكان المشحون بغيمات الوجع، استوقف سيارة أجرة وقفز داخلها واضعا حقيبته جواره مشيرا عليه أن ينطلق، وحين استفسر منه السائق إلى أين يريد إيصاله.. فكر سريعا ولم ينطق سوى بكلمتين:

- سوق واقف...

حين نطق بهما ألحت فكرة على رأسه الذي اعتاد به سرعة البديهة وإيجاد الحلول المؤقتة لتسيطر في ثناياها رغبته في إعادة ضبط أحواله وغرس أوتاد خيمة حياة جديدة في أرض تبدو كثبانية لا أمان فيها، لذا أسند رأسه للخلف بميل يطل نحو العالم من خارج نافذة سيارة الأجرة متنهدا متفحصا الأماكن والشوارع وعقله يراوغه مقارنا ما بين دنيته والسجن الذي كان فيه، فهو يرى أن

كليهما سجن ووجوده في أي منهما مؤقت، متهكما مندهشا من تصادف يوم خروجه بيوم ميلاد ابنه سعيد فتملكته ابتسامة محملة بالحزن والهم لجهله بما آل إليه حال ابنه، هل هي صدفة بحتة أم للقدر شأن في هذا الأمر؟!

هبط صامتا من سيارة الأجرة حيث بدايات السوق من ناحية شارع حمد الكبير واضعا الحقيبة على ظهره، عيناه يلفان المكان بنظرات تأملية فأمامه على مسافة نظره من ناحية اليمين مسجد الفنار، مركز الثقافة الإسلامي وهو النقطة المقابلة للمقهى في عمق السوق القديم، يعتبره السائحون مزارا سياحيا شهيرا ومميزا في مدينة الدوحة بدولة قطر، حيث تباع فيه المشغولات التراثية والذهبية ويتناول السياح الطعام العربي والشعبي والعالمي، عبر الشارع سارحا وقد علّق ناظريه جهة ساحة السوق التي تتطلب مشيا ما يقرب من الخمس دقائق حسب ذاكرته لبلوغ غايته، تعلق بأمل وجود صديقه المقرب ناصر الذي يمتلك مقهى (تاسيت) لمساعدته أو على الأقل سيمنحه مكانا للمبيت، لتخطفه أفكار سلبية وربما سوداوية : ماذا لو لم يكن المقهى موجودا؟ ماذا لو تخلى عنه صديقه وتبرأ منه خاصة بعد غياب أخباره على مدى الأربع سنين الأخيرة؟ ليقطع رحلة أفكاره صوت فرملة قوية لسيارة رباعية الدفع توقفت فجأة أمامه

وكادت أن تدهسه فوقع على الأرض من هول المفاجأة، نزل اثنان من ذوي البنية القوية تعلو رأسيهما قبعتان رياضيتان وتخفي عيونهما نظارات شمسية فاخرة، قطب أحدهم جبينه بصورة ملحوظة وهو يخلع نظارته، تطلع إليه وحاول أن يتودد إليه بلهجته المصرية ومد يده يساعده على النهوض بينما صلاح يحاول أن يستجمع الأحداث وقد لفته قامة الرجل الطويلة

- هل أنت بخير سيدي؟

بدت على صلاح علامات الخوف والرعب من صدمة المفاجأة مستجيبا للمساعدة رغم غضبه :

- لا شيء، أنا بخير.

- أعتذر منك.. دعني أوصلك حيث تريد... لتصحيح خطئي.

- أثار سقوط نظارته ضيقا في نفسه، توتر وأجاب بعصبية :

- لا أريد منك شيئا ولكن نظارتي سقطت مني ولا أراها!

انحنى الشاب وصديقه بحثا عن النظارة حتى وجدها أحدهما وراء إحدى عجلات السيارة وناوله إياها معتذرا من جديد وهو يطبطب على كتفه :

- أرجوك تقبل عذري.. اسمي هاني أنسي رياض وهذا (كارتي) الشخصي وعليه رقم هاتفي، دعني أشتري لك نظارة أخرى عوضا

عن خسارة نظارتك، أو أقدم أي خدمة ترغب بها، لا تتخيل كم أنا منزعج من نفسي.

عدل صلاح وضع نظارته التي تهشم أحد ذراعيها ونزع يد هاني من على كتفه بعصبية لافتة، متفرسا من جديد عضلاته اللافتة هو وزميله التي ذكرته بأيامه مع التمارين الصعبة لكسب قوة بدنية تصنع منه بطلا وحلما لفتيات المنطقة التي كان يقطنها، رافضا أيًّا من الحلول المطروحة لكنه استسلم لرجائه والذي توافق مع رأي المتجمهرين من المارة فتناول (الكارت) ووضعه في جيب بنطاله قائلا:

- أشكرك.

لم يستغرق الأمر بضع دقائق مرت وكأنها فاصل من الزمن الذي توقف، ركب الشابان السيارة وانطلقا بسرعة جنونية ذكرته بلحظاته حين كان يتباهى بسيارة والده في مراهقته وفضوله الذي قاده لمعرفة أنواعها خاصة ما تختص بالسباقات و(الأنتيك) وقدرته منذ ذلك الوقت على إصلاح الكثير من عيوبها بمهارة، وتحويل القديم منها إلى قطعة فنية يعاد بيعها بكل ثقة بأضعاف ثمنها السابق.. حين كان يستثمر فترة الصيف التي تقترب من الثلاثة أشهر للعمل ولا يضيع وقته باللعب كبقية أقرانه.

توكأ على ساعد أحد المارة الذي أصر على مساعدته ليعبر الشارع

ثم تركه ممتنا شاكرا، أغلق عينيه للحظات وهو يتنشق عبير الروائح المختلطة ما بين العطور، البخور والتوابل القادمة من البعيد ليمشي بمحاذاة سوق الذهب، توقف فجأة عند أحد المحلات الكبيرة للمشغولات الذهبية المتراصة في واجهة المحل الزجاجية حين لفته ثعبان ذهبي ليختطفه من حاضر اللحظة إلى ذكرياته مع أمه في صباه وهي تضربه وتؤنبه صارخة معنفةً بعد اكتشافها سرقته لثعبانها الذهبي الذي نسيته في خزانتها خارج صندوق المصوغات وتوبيخها له:

- مَن لا يتعلم يا صلاح من أمه وأبيه تعلمُه الأيام والليالي ومَن لا تعلمه الأيام والليالي تعلّمه السجون.

فتخيل نفسه بمواجهة حقيقية مع والدته وراح يتخيل رده عليها متمتما:

- لم يكن بإمكاني الرد عليك يا أمي فقد كنت صبيا في الحادية عشرة من عمري، ربما مقولتك الثمينة كانت من نصيبي فعلا ولولا سرقتي لما عرفتها، لكنك لا تدركين أن إحساسي بالمال وقتها أشعرني بالسطوة والقوة ولولا أبي الذي حال في النهاية بيننا لقضيت أول مراهقتي في السجن، أنت يا أمي لا تتورعين عن الإطاحة بي مقابل المال، أليس كذلك؟ إن خيانتي لك كما قلت لأبي وإخوتي في تلك السن المبكرة

تُدهشك، لكن لم تسأليني أبدا لماذا يقبع في أعماق نفسي الجائعة حق الأخذ طالما في جرابكما كوالدين فيضٌ من كثير.. فلم البخل علينا؟ أليس الأولى أن تسدي جوع مغريات تلك المدينة الخليجية التي ولدتني بها بدلا من سد جوع حساباتكما المصرفية؟ ألا يكفيك كل تلك السنين من قدح زناد التسلط على رقبتي ورقبة إخوتي تحت منطق سيدة الدنيا.. أنا ربما لم آخذ منك سوى عنادك التركي الذي ورثتِه عن أمك لكن تجربتي الأولى في السرقة ساذجة جدا فأنا مهما أنكرت فعليّ أن أعترف كم كنت غبيا حين ظهر عليّ بعضا من مظاهر الترف التي لا تتناسب مع صبي على مشارف المراهقة في مدرستي الذخيرة النموذجية المستقلة للبنين.. محاولا التباهي بما أستطيع جلبه مقارنة بأقراني بعد مذلتهم لي وجرحهم لمشاعري وهمزهم ولمزهم حول فقري الظاهر لهم مما عظم بداخلي الإحساس بالدونية، أعترف أنني كنت صيدا سهلا لأحد زملائي في المدرسة المحترف لتلك الأمور، رأى الإسورة معي وقد لمعت في ذهنه الأفكار فاستطاع إقناعي ببيعها.. أعطاني نصيبي ولم ينس اقتصاص نصيبه الكبير مذكرا إياي أنها مسروقة، تواكبت مع أقراني في المدرسة لفترة بسيطة فما إن اكتشفتِ ذلك حتى نلت منك الضرب والإهانة.. ذلًّا أكبر من ذل أقراني.. مما جعلني أستغرب قلبك القاسي كحجر الصوان...

المعاملة لم تكن منصفة أبدا، ففي كل مرة أخطئ كنت ترفعين سياطك لتبطشي ببراءتي دون تسامح، كنت أختفي ساعات تحت سرير أختي المتهالك، وأتساءل لماذا تفعلين بنا الأسوأ لأجل المال؟ بيت صغير ينام الجميع فيه في غرفة واحدة، لبنى وحدها تنام على سرير ونحن نتبادل الأدوار ونوزع أنفسنا من جديد على أرضية الصالة وأنت وأبي في غرفتكما الخاصة. لم أدرك هذا التبادل للأدوار إلا حين كبرت، كنا كما الممثلين في مسرحية هزلية شكلتها بيديك تقديرا للمال وتقتيرا على أطفالك الذين دهشوا من حياتهم البائسة في دولة خليجية منعمة، تكنزين المال وتعدّينه عدا في كل ليلة ثم تضعين جزءا كبيرا منه تحت فراشك والآخر في (البنك) وهذا ما عرفته حين كنت أنصت للحظات عراكك مع أبي فحوائط البيت لم تصمد أمام الصراخ.. تُغرقين نفسك بشراء الذهب كنوع من الاستثمار وأنا لم أفهم ذلك في حينه، لا أعلم لِم بلغ بك كل هذا الحنق لتنتقمي مني وحدي لمرةٍ وحيدة ضعفت فيها نفسي وسرقتك وصورتِ لنفسك أني انحرفت بفعلتي للأبد؟ كيف وصلت مشاعرك حد الشح لأتعرى من حنانك المزعوم؟ لماذا تأبى الظروف أن أكون مثل هذا المكني بالشيخ .... آل...؟ لماذا هذه الأنانية... لماذا؟

أفاق من ذكرياته على صوت بائعٍ في المحل خرج مستنكرا وقفته

الطويلة أمام الواجهة ليسأله إن كان يرغب بالمساعدة، وهل سيبيع ذهبا؟ اعتذر منه وقد وقر في نفسه ما عكسه مظهره الذي يعبر عن حالته الرثة، ظل يمشي وقد استغرقه الوقت خمسين دقيقة بدلا من الخمس دقائق لوجع قدمه من صدمة السيارة. ثم انحرف نحو ساحة السوق بتلكؤ واضح وكأنه يستجلب من عمق روحه الذكريات فلكل ركن فيه ذكرى خاصة، بحث عن هارون بائع (الآيس كريم) المشهور بحركاته البهلوانية فلم يجده، تلفت في الأركان بحثا عن البائعات اللواتي كن يملأن المكان ويفترشن الأرض ببضاعتهن فلم يجدهن، حاول أيضا استحضار وعيه وقت حضوره المستمر لمهرجانات سوق واقف الأربعة ومهرجانات السيارات (الكلاسيكية) في كل جمعة وسبت في كل موسم رمضاني ثم ذكريات زياراته الدائمة لمزادات الحمام والعصافير والصقور، وتربيتها التي حولها من هواية إلى تجارة.. ليتعلم مبكرا كسب المال.

ظل يمشي غير ملتفت إلى الباعة المتراصين على جنبات الطريق المؤدية إلى السوق الكبير باتجاه منطقة المقاهي والمطاعم ثم توقف عند مبنى حجري عتيق مكون من طابقين له شبابيك مستطيلة يعلوها أجزاء نصف دائرية من الزجاج الملون، تعرف على المقهى (تاسيت) من اللافتة المحفورة على قطعة خشبية معلقة على بابه، شعر بازدحام

الساحة بالنباتات والأشجار فهي لم تكن موجودة بالسابق، زيادة عدد الطاولات، الكراسي، المظلات (التندات) والمكيفات الصحراوية مما يعطي انطباعا عن تطور المكان، دلف باحثا عن مكانه المفضل عابرا المدخل المزدحم بالأعمدة الرخامية السوداء و(الأنتيكات) المتراصة على طاولات (كلاسكية) من الخشب والمطعمة بالرخام أيضا، أدار عينيه يتأمل التماثيل والتحف الفنية في كل مكان وهز رأسه معبرا عن رضاه عن عدم تغير وجودها وتذكر تنافسه مع ناصر على اقتناء ما يشبهها لتتسارع دقات قلبه المتعلقة بمظلة أمل، سحبته قدماه بحثا عن طاولته المفضلة رقم واحد وعشرين والتي تتطابق مع يوم ميلاده، قبع في ركن بعيد، صدق حدسه وتغير موقع الطاولة مع الأسف وأصبح جوار "فاترينة" خشبية بقوائم ذات زخارف ذهبية تحمل أربعة رفوف من (الأنتيكات) الفرنسية المتنوعة، شعر براحة نفسية لألفة مع المكان الذي تغيرفقط القليل من تفاصيله فالأماكن أوفى دوما من البشر. جلس وهو يتمنى ألا تكون نفسية ناصر قد تغيرت خاصة مع انقطاعه عنه لعدة سنين دون سابق إنذار، وبينما هو يقيم في فضاء الماضي أتاه النادل ليسأل عن طلباته فعاجله بسؤال جاد عن صاحب (الكافيه).. ناصر.. ورغبته في رؤيته ليخبره النادل بعدم وجود أحد بهذا الاسم، وقف

محاولا أن يقيم ظهره المنحني ويستجمع أفكاره من جديد وبغضب ملحوظ سأل النادل:

- من صاحب (الكافيه) إذن؟

- لماذا تسأل؟

- أريده بموضوع مُلح وضروري.

أراد النادل أن يبتعد عن حلبة الأسئلة التي بدأ صلاح يلكمه بها فأخبره بأنه جديد في العمل هنا ولا يعرف شيئا.. لتتداعى لخيالات صلاح فكرة يقاتل من أجلها.. بينما قاطع صمته النادل:

- هل ستشرب شيئا سيدي؟

- أريد رؤيته.

- مَن؟

- صاحب المقهى.

- سبق وأخبرتك أنني لا أعلم من هو؟

لاح مدير "الكافيه" مهرولا نحوه ليستفسر منه عن سبب ضيقه وسر انزعاجه من النادل.. ليخبره بعدم وجود أحد بهذا الاسم وطالبه بالهدوء فكرر طلبه:

- من صاحب المقهى إذن؟!

- السيد صلاح العدواني (أبو عدنان)!

رطن صلاح بعدد من الكلمات غير المفهومة تعبيرا عن ضيقه:

- هل أنت متأكد؟ ماذا عن ناصر؟

- أنا لا أعرف سوى أبي عدنان!

احمر وجهه وشعر بغمامة أثرت على تركيزه، عدّل وضع نظارته وقال بنبرة حادة:

- أريد مقابلته إذن.

أومأ المدير له بالإيجاب بعدما هدأ من روعه وأقنعه بالجلوس من جديد، ثم انزوى ليتحاور مع صاحب المقهى لعدة دقائق، فأخبره عن وجود شخص غير متزن بملابس قديمة، ملامحه جادة غاضبة ويلح طالبا لقاءه أو لقاء ناصر فهل يصرفه:

- جارِه لبعض الوقت، أنا في طريقي إليكم.

جلس صلاح وقد حاوطه الإحباط من الجهات الأربع لكن لا ضير من الصبر بعضا من الوقت بعد كل تلك السنين فهو لا يريد أن يفقد شعرة الأمل المتعلق بها بعد هذه المسافة التي قطعها.. أعاده المدير للواقع حين حادثه بصوت مملوء بالجدية:

- هل أحضر لك شيئا لتشربه لحين وصول صاحب المقهى؟

- متى سيأتي؟ - بعد صلاة الظهر..

تنفس الصعداء وأعادت الجملة لنفسه قليلا من الثقة والهدوء،

اقترب موعد الأذان:

- قهوة من فضلك.

عدّل جلسته مغطيا رأسه بالقبعة جيدا، شغلته في البداية نظارته التي كُسر ذراعها لكنه تعود على ترميم أي شيء محطم كمن أراد ترميم ذاته المتعبة من طول السجن. فلماذا تغلق كل الأبواب هكذا في وجهه من أول يوم للحرية؟ إن ما يحلم به هو ركن بسيط يستعيد فيه توازنه..

ثم راح يفكر بعمق... كيف سيخرج من ورطته هذه؟ من هو صاحب المقهى الجديد، وأين ناصر صديقه الذي ساعده لأعوام؟ أسئلة كثيرة راحت تتلاطم في بحر أفكاره!

انتحار الدهشة

القهوة التي أحضرها النادل سلبت حواسه حين رفع الفنجان وقربه من أنفه ليشم رائحتها القوية التي يعشق، بدأ برشفها وكأنها المرة الأولى فقد نسي كيف كانت لذتها، رمق عبر نظارته حركة الناس المتكدسة خارج (الكافيه) فالمعروف عن السوق نهارا أنّ أعداد مرتاديه قليلة والليل شأن آخر معهم حيث الزحام، تذكر قاعة الشخصيات المهمة (VIP) التي كان ناصر يخصصها له لاحتفالاته المستمرة بعد كل نجاح في مسابقات كمال الأجسام حتى وقت متأخر من الليل.

انتزعته يد ـ ربتت على كتفه ـ من الذكريات وخلعته من الماضي لينتفض من مكانه كمن عاد بآلة الزمن التي سحبته للتو من عمر قديم ليلملم أشتات ذهنه، التفت ليجد نفسه أمام شاب يافع بشعر أسود حريري كثيف لافت، كث اللحية الملتصقة بشاربه الرفيع، بشوش الوجه وضخم الملامح، تعكس ملابسه مظاهر النعمة على جسده المتخوم لحما وشحما، دشداشته بيضاء بياقة مطرزة بتطريزات حريرية، يفوح منه روائح مختلطة ما بين دهن العود

والمسك الذي يعرف كيف يميزهما ببراعة، لفته بريق الخاتم الذهبي المرصع بالألماس محشورا في خنصره، ليحييه:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قام من مكانه ورد السلام وعرفه بنفسه:

- أنا "صلاح عبد اللطيف".

- وأنا صلاح أيضا، من حسن حظي هذا التشابه... لكني أحب أن تناديني بأبي عدنان.

- جئت أسأل عن ناصر، كان صاحب المقهى في بداية الألفية الجديدة وأنا متأكد من الاسم لكنهم أخبروني أنه لا يوجد أحد بهذا الاسم فهل تعرفه؟ هل اشتريته منه؟ أين هو الآن؟!

تغيرت ملامح الشاب وقد وضع يده على فم صلاح مانعا إياه من إكمال الحديث:

- كل فريق العمل جديد هنا وقد أخبرني المديرعلى الهاتف أنك تسأل عن والدي رحمه الله لكنه مات منذ أربع سنوات، كيف يمكن أن أساعدك؟

لم يتمالك صلاح نفسه ومسح دمعاته العزيزة التي انهمرت فارة من عينيه فأفصحت عن وجنتين تملأهما التجاعيد، شعر بسياط الآلام تشقق ظهره فما أصعب الفقد الذي يصيب النفس في مقتل، ارتد إلى

كرسيه ليجلس وكله دهشة:

- مات؟ البقاء لله لقد فجعتني بهذا الخبر، إنه أعز أصدقائي، رحمة الله عليك يا أبا صلاح، وأنا الذي استغربت غيابه عني، لم أكن أعلم أنه فارق الحياة... لا حول ولا قوة الا بالله.

مد الرجل يده مفسحا المكان لجسده الضخم، جلس متنهدا وهو يتابع:

- رحم الله أمواتنا وأمواتكم يا عمي لقد مات والدي بوباء (كوفيد ١٩) في منتصف السنة المشئومة ألفين وعشرين وعانى كثيرا في المستشفى وقد تداعت أحواله كونه مريض قلب وسكر.

تحولت ملامح صلاح من الدهشة والاستغراب إلى ملامح شخص للتو فقد أحدا من أهله:

- صحيح! جميعنا مررنا بأزمة (كوفيد ١٩) ولم أتصور أبدا أن الموت سيحصد روحه كما حدث للكثيرين، رحمة الله عليه.. كان أخي وصديق عمري، هل تعلم أن أباك سماك صلاحا تيمنا باسمي، كان يريدك بطلا لكمال الأجسام مثلي، لقد اشتد عودك يا ولدي!

أخيرا تبدد - قليلا - الخوف الذي انتاب أبا عدنان في البداية من أسئلة هذا الصلاح:

- معقول! أتقصد أنك "كابتن صلاح" صاحب البطولات المعروف؟ ظل

أبي دائما يذكرك ويذكر سهراتك التي تصر أن تقيمها فرحا بعد كل بطولة عنده بدلا من أن تقيمها في أي مكان آخر، صحيح أنني كنت فتى صغيرا لكنها ذكرى عالقة بقوة في ذهني. نحن مدينون لك بالفضل في معرفة أهل الدوحة وما يحيطها من أن مقهى (تاسيت) هو مكانك المفضل... كما أن ملامحك قد تغيرت كثيرا!

أخذهما الوقت طويلا حين سرد كابتن صلاح واحدة من قصص بطولاته وهو يخطط في نفسه كيف يمكنه الانقضاض على نفسية أبي عدنان ليستحوذ على عواطفه بالكامل، فيذوب وقتها ثلج التحفز في قلب ابن صديقه، ويتحول لماءِ حنين. فعبر له أبو عدنان عن خلجاته المكبوتة داخله:

- أبي كان كثير الحركة ولا يلتزم بالتعليمات ويختلط بالناس كثيرا رغم ارتدائه الكمامة والتزامه بالمطهرات، يخرج يوميا لمتابعة الحياة رغم الحظر الذي فرض علينا وأنهم أغلقوا (الكافيهات والمولات) وكل المحال التجارية في كل مكان، أصرعلى دفع الرواتب لكل الموظفين والعمال عنده بنفسه حتى وهم في بيوتهم. اعتبر المقهى بيته الثاني وتفقده يوميا، وبعد أن تسبب لنا هذا الإغلاق بتعسر في الأمور قررت الحكومة فتح كل شيء مع أخذ الاحتياطات الواجبة... فرح أبي بذلك وبالكاد صار يفارق السوق حتى غاب

طويلا عن البيت ذات نهار كعادته، لكنه لم يرد على هاتفه لساعات مما أثار قلقي. ولما تفقدته هنا وجدته مغشيا عليه، نقلته سريعا للمستشفى والوباء لم يرحمه كما لم ترحمه الأمراض. طالت أيام معاناتنا ورعبنا من فقده! لم يكمل أربعة أيام في العناية المركزة، فقد دفعنا الكثير من الأموال على أمل إنقاذه، لكن الموت خيم بأذرعه السوداء على الأرض! شعور بغيض أن يموت والدي وحده دون أن أُقبل جبهته! غطوه بأكياس سوداء معقمة مكتوب عليها لافتة "احذر الاقتراب خوفا من العدوى" ودفن دون وداع، جنازة أو عزاء يليق باسمه العريق. فقط اتصالات ورسائل قصيرة ناعية عبر الفضاء الأزرق ومواقع التواصل! تحولت الحياة يا عمي إلى كلمات دون مشاعر أو مشاعر تحركها رموز عبر الأزرار.

تنفس أبو عدنان بعمق وأطلق آهة ممتدة تعبر عن صرخة ملجومة، حاول تمالك نفسه وأدار دفة الحديث بعيدا عن أحزانه ليسأل عمه عن سر اختفائه كل هذه المدة. فهو لم يره أو يسمع عنه منذ أن كان فتى، وأثار فضوله التغير الكبير الذي أصاب ملامحه مثل نحوله الواضح والذي شك أن يكون بسبب مرض ألم به. فلما هم باحتضانه مسرورا، أطلق كابتن صلاح تأوها خفيتا ليندهش أبوعدنان ورفع حاجبيه متسائلا: هل أنت مريض؟!

- لا، كنت في طريقي إلى المقهى ومن لهفتي للقاء والدك اصطدمت بي سيارة أثناء عبوري الشارع.

- يا إلهي! لماذا لم تخبرني بذلك منذ البداية؟ هل أنت بحاجة إلى طبيب؟

- لا تقلق، أنا بخير، ولكنني متعب الآن؛ هل لي بأن أستريح؟

- طبعا! دع عنك هذه القهوة، سنتناول الغداء سويا في بيتي.. مرحبا بكابتن صلاح.. رائد بطولات الدوحة.

مراوغة الحياة

إن تجربة الحبس تقسّي القلب، وتعمّق مشاعر الفتور والجفاء حيال الآخرين، تودي بصاحبها نحو جنون الارتياب الدائم ورغم اعتناق صلاح عادات مختلفة لوقتٍ طويل لا يمكن تغييرها ببساطة لإحساسه أن ما حوله كالسجن بقضبانٍ لا مرئية.. لكن ناصر صديق العمر ورفيق الانتصارات هو أقرب الناس إلى قلبه، شجعه حيث أنكره أهله وعضده وقتما أخذ قرارات عنترية متهورة وحتى علاقاتهما الأسرية متينة..

على بعد خطوات من مدخل السوق وصلا إلى بيت أبي عدنان الذي اشتراه مؤخرا، كان لافتا لصلاح تفاصيل كل شيء وأي شيء حوله، حتى استقر الأمر بهما داخل الديوانية، فشعر بالراحة والبرودة المتدفقة من المكيف والتي تتنافر مع حرارة الجو في هذا الشهر الحارق، حدق في وجه أبي عدنان واستجمع شجاعته ليقول:

- كنت أنام في حجرة دون تهوية أو ضوء، الأسرة فوق بعضها البعض، مزدحمة بالمساجين من جنسيات مختلفة، معظمهم لا يتحدث العربية، متشبثون بالحياة رغم أخطائهم وآثامهم ومع مرورالسنين

اكتشفت أنني محاط بمصابين بالسل.. الجرب.. القراد. أهرب من فجيعتي لأعمل طباخا لمدة طويلة أستطيع من خلالها توفير المال الذي يمكنني من شراء بعض حاجياتي وإلا كنت سأموت قهرا وحسرة، لم أعهد هذا الشعور... رأيت بعض الجثث في الممرات بلا اهتمام من إدارة السجن حتى فاحت رائحتهم.. آمنت بحقوق الإنسان حتى تبخرت وتحولت إلى شعارات في سنة الوباء.

تخيل كيف كنا نسمع عن حيرة العالم حول هذا المرض.. أما في السجن فقد تفشى في كل مكان.. مطبخ السجن المركزي، عنابر الرجال والنساء! كدسونا كالحيوانات في عنبر واحد، دورة مياه واحدة لعدد كبير من المساجين.. هذا إذا ما وصلنا الماء!

الفوضى أدت للإضراب عن الطعام كي نحصل على الأدوات الطبية.. كالمطهرات، الرعاية الطبية... أَخْ... فالبعض استطاع أن يكشف فضائحهم على (الفيسبوك) بالصور، أما أنا فنأيت بنفسي عن المشاكل لكني أصبت بوسواس جديد للنظافة فتحاشيتهم جميعا، أراهم أعدائي خاصة لو عطس أحدهم أو ظهر عليه عرض غير طبيعي أو الانفلونزا، لذا غطيت سريري من كل الاتجاهات بالبطاطين خوفا من العدوى وعلقت حاجزا من المُلاءات المهترئة لتفصلني بعالمي الصغير الذي يزداد ضيقا عن عالمهم، وأضع على فمي قناعا من

قماش تحاشيا للموت، فلم تعد المشكلة أننا بصدد التوجه نحو قِبلة الموت لكن التوقيت لا أعلمه ولا كيف سأستعد لمثل هذه الفكرة، حتى وصلت أخبارنا لـ "هيومن رايتس واتش" وطالبوا الحكومة بإخراج المساجين من كبار السن والمرضى بأمراض مزمنة لأن الوضع كارثة إنسانية واعتُبر قنبلة جرثومية موقوتة، ولم أكن محظوظا أبدا فلم أكن من كبار السن الذين تخطوا الستين ولا من أصحاب الأمراض المزمنة ولا حتى من السجناء السياسيين... وقتها تعذبت كثيرا حتى تمكنت من الخروج... ولكن بعد هذا المرض بسنين.

بهذه الحكاية افتتح حديثه لأبي عدنان- صلاح ناصر العدواني ابن صديق العمر- في بيته والآخر تعلو ملامحه الدهشة وسأله باستهجان:

- كل هذا الوقت في السجن لماذا؟ ماذا كانت تهمتك؟

- نعم سجنت فترة أطول مما توقعت وكأنني كنت حجر عثرة في طريق آخرين.. أرادوا إزاحتي لتنقلب حياتي رأسا على عقب ومنعت الزيارات عني في الأعوام الأربعة الأخيرة ربما في البداية كان المنع بسبب الوباء ثم من بعدها صار معتادا عدم زيارة أي أحد وقد أخذوا كل الهواتف الموجودة معنا. لم تعد لدي قدرة على التواصل أو السؤال عن أحد، تعددت أيضا زياراتي لمستشفى السجن بسبب

إضرابي عن الطعام وذلك لما أناله من معاملة تعسفية لا علاقة لها بما اتهموني به.

تنفس صلاح بعمق كالغريق الذي تعلق بقشة نجاة..وأكمل:

- عام الوباء مليء بالرعب... السجناء يختفون تباعا دون أن ينبس أحد ببنت شفة، سرعان ما تناقص أعدادنا لضعف إجراءات التعقيم والنظافة... حتى تم تطعيمنا باللقاح.. بعد أكثر من عام.

لقد اعتبر ابن صديقه بر أمان يستطيع من خلاله بث كل الهموم فأردف حديثه:

- في بداية الأزمة ما إن تظهر أية أعراض على أي سجين حتى لو كانت (إنفلونزا) عادية أو كحة فإنهم يختفون، كنا نشاهد سيارات ضخمة تأتي لنقل جثث الموتى المصابين (بالفيروس)، عشرة منهم على الأقل كانوا في زنزانتي.. ولا أصدق نجاتي من تلك الغمة، لكنها سبحان الله غيرت مجرى سجني... قدر لي في عام ألفين واثنين وعشرين وجود سجان غزا الفضول عقله ليسألني عن اسمي وسبب سجني، لاعتقاده بأن وجهي مألوف له. وحين أخبرته أن اسمي صلاح عبد اللطيف دقق في ملامحي وكأنه يبحث عن شيء ما لا أعلمه، أطلعته على تاريخي الرياضي وأني بطل لكمال الأجسام لعام ألفين واثنين ممثلا لقطر.. فصل الصمت بينه وبين تصديقي،

فبنيتي لم توح أبدا بما أقول. سردتُ له قصة حياتي فسألني عن جنسيتي فأجبته بأني لبناني، كدت أحصل على الجنسية القطرية حين تكررت انتصاراتي، والدي يعمل مدرسا ورئيسا لقسم الآداب في الجامعة وله حلقات (تلفزيونية) معروفة. ليسألني متهكما عن سبب دخولي السجن كل هذه المدة، وحلفت له أن التهم الموجهة لي وقيعة من شريكي... لفقها لي بعد تقديم (شيك) واحد (للبنك) كتبته له حين أسسنا شركتنا الجديدة لتجارة قطع غيار السيارات الفارهة لكنه نصب شراكه عليّ مرتين، أولهما بصرفه (للشيك) حين وضع له تاريخا قبل الموعد المتفق عليه بسنة وثانيهما أن ما أخذته منه من مبالغ تخص حصته في الشركة حولته لشركة أوروبية رشحها لي وأكد أن قطع الغيار تباع لديهم بأسعار رخيصة لأنها شركة حديثة العهد بالسوق ويريدون التسويق لأنفسهم لاكتساح المنطقة فيما بعد، فطاوعته وتم التعاقد بيننا.... لكن البضاعة لم تأتِ أبدا.

فاجأني بضربة قاسمة قضت عليّ، فبالطبع وجدوا (الشيك) بلا رصيد وتيقنت من خلال بعض الأخبار التي سربها لي البعض أن الشركة الأوروبية لا وجود لها على أرض الواقع.. كل هذا كان كفيلا لوجودي في السجن لمدد طويلة، باغتتني خيانة شريكي.. استرد ماله بدهاء ومكر!

فكرة الشركة الأوروبية المزعومة والأحداث كانت أكبر من طاقتي الاستيعابية لوجود هذا القدر من الشر، فحكم علي بالسجن خمس سنين لكن تراكمات (الشيكات) الأخرى الخاصة بإيجار المحل والمخزن وفواتير الهاتف والكهرباء بسبب اعتقالي.. لم تمكني من سداد أي شيء، وكأنه جبل انهار فجأة وانجرف بي نحو مصير مجهول..

ولمعت دمعتان في عينيه حين استطرد:

- ولولا والدك الذي ساعدني فنقل البضاعة بعد سجني لـ (جراج فيلته) وتمكن من تسديد بعض (الشيكات) ببيع قطع الغيار التي اشتريتها قبل توقيع الشراكة وعمل على تحصيل مستحقاتي من بعض الشركات... لما أكملت صبري على ما أنا فيه ثم جاهد أبوك رحمه الله بكل قوته لجمع التبرعات لي من هنا وهناك، حتى نلت عن طريقه عطف الشيوخ وبعض الأسماء اللامعة من أيادي الخير في قطر واعتبروني من الغارمين فتم تسديد كل ما تبقى عليّ وهذا في رمضان من عام الوباء... كنت فرحا بأني سأنهي مدة الحبس وأخرج، لكن شيئا غريبا استدعاهم لتمديد حبسي بحجج واهية لعدم استئنافي لقضايا إسقاط الأحكام فيها بمرور الزمن، لكنهم أضافوها كحجة، فضاع مستقبلي الرياضي والتجاري وتبخرت أحلامي..

واختفى بعدها أبوك عني!

حينها يا عزيزي أمسك السجان بذقنه وأخذ يفكر كثيرا ورغم أنني حاولت إقناعه باحضار أبي وسؤاله عن بطولاتي (وميدالياتي) والتفاصيل التي ذكرت، اعترض وفاجأني أنه يعرف والدي حق المعرفة لأنه كان صاحب فضل عليه حين خدم ضمن فريق حرس الجامعة قبل فترة خدمته بالسجن..وكيف كانت صور بطولاتي تملأ غرفة أبي الذي كان فخورا بي.. ولولا هذه الصدفة لما تمكنت من العودة للحياة ولم يكن ليبرق الأمل من غيمات وجعي ويمطر على أرضي اليائسة.

أخفى وجهه للحظات في باطن كفيه ليمسح دموعا أوشكت على السقوط عنوة:

- لا أدري لِم انهارت دموعي وقتها وأنا عزيز الدمع، لم أبك على أشياء كثيرة مرت بي، لكنني شعرت باقتراب الفرج.. كيف؟! لا أدري! حتى غاب عني ولم أره إلا بعد أسبوع كامل، سرب لي وقتها أموالا وهاتفا محمولا أستخدمه ساعة باليوم لفترة قصيرة. تمكنت من الاتصال بالجهات الدولية لحقوق الإنسان بعدما منحني أسماء وأرقام هواتف محامين متخصصين في هذا الأمر، علمت بعدها تكلفة تسريب هاتف إلى السجن، الذي يصل ربما لثلاثمائة دولار. تقدمت

بأكثر من التماس للمحكمة لوجودي ظلما في السجن كل هذه المدة. حتى أعيد النظر في قضيتي التي أهدرت عمري بالانتظار أكثر من الحكم الذي صدر بحقي عام ألفين وأربعة عشر لأكسب الحرية أخيرا.. ما أصعب أن تكون فرحتي ناقصة فقد اعتمدت على أن أباك سيكمل مساعدتي لأزاول حياتي من جديد، لكن خطه المغلق طوال الوقت سرب إلى نفسي الكثير من الشكوك حول ماهية غيابه خاصة وأن فترة تواجد الهاتف معي لم تمكث طويلا ولكن تخميناتي لم تصل أبدا حد توقع موته! (كوفيد) حوّل كل ما هو غير متوقع في هذا العالم إلى متوقع جدا!

ساد الصمت بينهما طويلا ينظران نحو بعضهما وكأنهما يناوران الكلمات الصامتة قبل أن يتنبه أبو عدنان أنه يعيش واقعا أبعد من تخيلات الأفلام، استأذنه أن ينهيا الكلام في وقت لاحق لأن سفرة الغداء أصبحت جاهزة.

جال (كابتن) صلاح بنظره وهما ينتقلان من الديوانية الواسعة التي تكفي لمئة شخص على الأقل مدققا في فخامة أثاثها وامتلاء جنباتها بالتحف الثمينة حتى وصلا قاعة الطعام، لفتته تفاصيلها: غرفة كبيرة، يغوص في كل هذا الفراغ سفرة طويلة من الخشب الأرو بلونها البني الداكن، أرجلها المدهونة بماء الذهب، سجادة حريرية

بنفس الألوان المتمازجة تقبع تحتها لتخفي جزءا من قطع الرخام التي تكسو الأرضية، كراسيها منجدة بنسيج أزرق لافت تتخلله رسمة (كلاسيكية) من اللون الذهبي، يعلو ظهر الكرسي زركشات بحليات مذهبة دقيقة في المنتصف، مد يده لها متحسسا تلك الفخامة ثم جلس متحسرا يعيد على نفسه: أليس من الأجدر أن تكون بحوزتي هذه الفخامة؟ لم يكن أبو عدنان أفضل مني ولا أذكى في التجارة حتى يرث إرثا يجعله متخما بالأموال ويحظى بكل ما هو فيه من ترف ونعمة. نظر أمامه حيث تقبع مرآة كبيرة و(بوفيه) تتناثر عليه التحف والشمعدان القيم، الستائر الحريرية تجمع ما بين اللونين الأزرق الفاتح والبيج، تغطي المساحات الزجاجية من الغرفة. تدور عيناه في الغرفة كما آلة المسح أو (الإسكانر) لحفظ كل تلك التفاصيل، شدته اللوحات الفنية الزيتية التي تزين الحوائط المدهونة بالأبيض، تبخر هذا المسح من ذاكرته فور توافد الخدم بأطباق الطعام التي افتقد رؤيتها منذ زمن بعيد، شملت ما يحب من الأسماك بأنواعه المشوي والمقلي وشوربة (السي فود) ثم توسط المائدة (سرفيس) كبير يحوي الروبيان المشوي بحجمه الكبير الذي يشكل حلقة دائرية والاستاكوزا مشقوق ظهرها ويسيل منه الجبن، طواجن الأرز بالروبيان والسلطات التي حولت المائدة إلى

حديقة ألوان، العصائر والمياه الغازية وزجاجات المياه وأطباق أخرى على هامش المائدة على طاولة أخرى تحتوي الفواكه الطازجة والحلويات الشرقية والغربية. سرد له عن زياراته الدائمة لأبيه التي لم تكن ليقطعها أي سبب وعن كرمه الغامر. بعدها انزوت كل تلك الأصوات إلا صوت مضغ الطعام وصوت القلق الذي يدق رأس أبي عدنان فهو لا يعرف كيف يتصرف أمام هذه المصيبة التي حلت عليه رغم تظاهره بأنه متماسك، ظل صامتا معظم الوقت تعلو وجهه ابتسامة مصطنعة، صراع يقذف ضميره بكثافة حتى علقت الكلمات في حلقه كشوكة السمك التي يأكلها، يسدد له نظراتٍ من وقت للآخر لم يفهمها صلاح، لكنه انتظر حتى أنهى واجب الضيافة كاملا مكملا، ومع آخر رشفة شاي وهما جالسان على الكراسي الفخمة المجاورة لمائدة الغداء، رشق بكلماته الجارحة جدار الصمت الفاصل بينهما:

- عمي، اعذر وقاحتي.. لكن لن أتمكن من استضافتك طويلا، هي ليلة واحدة فقط إكراما لذكرى والدي!

اندهش صلاح لرد فعله فقد توقع أن يشابه أباه في أشياء كثيرة بعد هذا الاستقبال الحافل ولكن ليست كل التوقعات تأتي متناغمة وفق رغباته، شارفت سماوات الأمل على الانهيار حتى كادت تتحول إلى دخان نيران تشتعل في قلبه، فكل الفضاء الجميل الذي قضى به وقتا

ممتعا مع أبي عدنان أضحى ساحة حذر؛ ولا يوجد تغيير جذري فجائي في النفوس، حتى يقفز بمشاعره من النقيض إلى النقيض، تبادر لذهنه أن أبا عدنان مارس سلطة تحجيم طاقة الخيرداخله..

فاعتدل في جلسته وبصوت خفيض حاول شرح موقفه:

- أعلم أنه ليس بالأمر الهين ولكن كما تعلم هويتي منتهية ولن...

قاطعه:

- عفوا عمي لا أقصد الإهانة ولكن أين أهلك؟ لماذا لا تحاول العودة لهم؟ هم أولى بك مني.

- فكرت في ذلك كثيرا لكن أبي توعدني إن خطوت خطوة نحو البيت فسيبلغ عني مرة أخرى وأنا لا أريد الرهان على صدقه.

- هكذا! معقول أن تبلغ القسوة بالدكتور عبد اللطيف قول ذلك؟ - أنت لا تعلم الوشايات التي وصلتهم عني، لم يزرني أحد في السجن إلا أخي صادق في مرات نادرة.. أرجوك لقد صارحتك ولم أخدعك.

- حاول أنت مرة أخرى أن تزورهم، أما اليوم سأتركك لترتاح في مخزن المقهى حتى الصباح.

استأذن أبو عدنان وغاب عنه بضع دقائق ليستجمع أفكاره ثم عاد واضعا يده في جيبه ليخرج له مبلغا دسه في يد العم صلاح محاولا إخفاء امتعاضه ثم أدار دفة الحديث بمنتهى الحزم:

- أبلغتهم ليجهزوا لك غرفة التخزين بالمقهى لتكون مكانا للمبيت وبإمكانك فيما بعد تدبير أمورك بهذا المال وسامحني لن أستطيع استضافتك بالمنزل مرة أخرى، أنا لم أكن أعلم بكل هذه التفاصيل ولا أريد أن أسمع المزيد الذي قد يورطني في أي شيء لا علاقة لي به، حتى وإن أنهيت مدة سجنك لكن ما يدريك ما يحدث.. فبالتأكيد رصدوا عليك مراقبة. صدمت صلاح تلك الطعنات السريعة وسمع صدى وجعه في قاع حنجرته، غلبه شعور بهبوط مفاجئ وعرق غزير طغى على وجهه وكأن انتقام الدنيا يضيق دائرتها عليه.. ليسقط على الأرض.

هذا فراق بيني وبينك

في ليلة مريرة قضاها بنفس ملابسه على أرضية خشنة في غرفة التخزين، يضع حقيبته تحت رأسه باكيا، شقت على نفسه أن تكون تلك هي أولى ليالي الحرية المزعومة فهو لم يحاول العودة لمنزل أبيه ولا يستطيع المجازفة الآن ولا أن يبيت في المخزن لأكثر من ليلة واحدة. غذى روحه بالأمل أن الغد سيكون أفضل كي لا يموت حسرة. فعلى الأقل لن تمضي أيامه القادمة مثل لياليه السابقة ولا قتامة الشعور بالرفض.

قبل نومه، أسند رأسه للحائط كما اعتاد أن يسنده على حائط السجن المكدس بالمساجين، ليفارق المكان بروحه وخيالاته. فيسأل نفسه كم مرة بات مظلوما واشتهى أن يمارس حقه في تحفيز جعبة الشر الكامنة في نفسه ليكون ظالما؟ ألهذا الحد لم يعرف كيف يغلب الشر الذي أودى به إلى قاع القيد؟ هل من الأجدر به أن يكون مزيفا مقنعا لا يكشف وجهه الحقيقي لأحد؟! كل أقواله وانفعالاته لا تحمل تناقضا بل تميزا أوصله للا شيء سوى ما هو فيه من شتات وضياع.

تقلب يمنة ويسرة وهو يرى أمه. المرأة ذات السطوة والقوة والتي خلّف الزمان آثار حروبه على وجهها الصارم بتجاعيد غائرة، أنفها دقيق إلى حد كبير يتناسب وشفتيها المزمومتين باستمرار، حياتها عبارة عن ثكنة عسكرية تتبع فيها نظاما قاسيا من المعاملات ولا يسمح بأي تجاوزات، زارته في حلمه ليسمع صوت غضبه مناجيا إياها:

- أين أنت يا أمي يا صانعة عذاباتي؟ تركتني أستدعي ظلمك وليس حنانك المجفف الذي تذيبينه في كأس المحبة للآخرين ولا تملكين أن تذيبيه في كأس ألمي الدائم.

يا أمي لم لا تصدقين أن عقوق الآباء لأبنائهم هو أول مسمار يُدق في نعش الروح؟!

سأصبح يوما مثل الشيخ.. آل ....، وسأبرهن لك ولغيرك أني لست بأقل منه..

يا أمي ربما سقوطي في هذا العالم الضيق ما هو إلا جزء من دعواتك علي، أسمعها في كوابيسي تصرخ بغضبك!

أين أنتِ من طيبة قلب أبي التي تُغرق العالم؟!

ارتدت روحه ليستيقظ وصرخاته تتقاطع مع صوت آذان الظهيرة الذي فصل ما بين دنيا أحلامه ودنيا واقعه، تحامل على نفسه المتعبة

وقام من الأرض رغم إحساسه بالتكسير والانكسار، وضع قبعته على رأسه وحمل حقيبته على ظهره وتوجه للحمام لغسل وجهه، ثم حدق طويلا في المرآة قبل خلع نظارته فلم يتمكن من التعرف على نفسه التي يفاخر بها من حوله لكنه تمتم:

- الغرور يليق بخيالي، سأعيش يوما ما بعيدا دون أن يشعر بي أحد.

أكمل وقد ابتسم ابتسامة صفراء:

- نعم لَم أكن بريئا كيوسف، لكني بالتأكيد لا أعرف متى يسخّر القدر دلاءه لنجدتي فأعتلي عرش المال بدلا من توزيعه على الغير ليمارسوا به أذيتي. سأبدأ من جديد ولن يعيقني أحد.

استوقفه نادل المقهى ليسأله عن هويته وحين عرف أنه من طرف أبي عدنان بادره بابتسامة تعبيرا عن أسفه:

- أبو عدنان أوصى المدير بالاهتمام بك حتى تغادر، فهل أحضر لك شيئا تشربه؟

- قهوة لو تكرمت.

- انتظرني بالخارج على أي طاولة تريد لآتيك بفنجان قهوة وسأحضره لك بنفسي.

جلس على طاولة في الهواء المشبع بالرطوبة وأمامه مروحة كبيرة تحاول تخفيف وطأة الحر. ففي غياب زحام الزبائن لا يتم تشغيل

المكيفات، نظر حوله بكل ترقب فوقعت عيناه على شيخ يجلس على الطاولة التي تليه، هندام بدلته ولحيته البيضاء ذكراه بأبيه الذي امتاز بقامته القصيرة بعض الشيء، ممتلئ البدن ولم يعبأ بازدياد بروز كرشه كل سنة، تربطه به علاقة قوية ومتينة من الحب الأبوي، دائم الدفاع عنه ضد أي شجار ينشب بينه وبين أخوته، ربما لأنه يذكره بشبابه! نفس الطباع ونفس الوجه.

اعتاد أن يعود متعبا من محاضراته ليأخذ قسطا من النوم، يتناول الغداء ثم يصحح ويرصد درجات الطلبة، حتى إذا جن الليل استعد بكل طاقته للعَشاء. إن علاقتهما أشبه بصديقين بعيدين في بعض صفاتهما، بينما الحنان هو الميزة التي تجمعهما، يبحث في داخله باستمرار عن السبب الذي يؤرقه، فيجادل أباه رغم حبه لنصائحه. أغلق عينيه ليتذكر صوت أبيه يقول: "لا وقت للندم على الأشخاص والأوقات والعلاقات، الوقت بالنسبة لي خُلق للاستثمار، لا الإهدار... تذكر ذلك جيدا يا صلاح".

تداعت أفكاره عن الزمان الذي مر بأربعة أعوام على سرقته، في يوم لم تتوقف فيه السماء عن نزف مائها إلى الأرض كما لم يتوقف أبوه عن توجيهه ونصحه، بينما أخته لبنى التي اعتقد دوما أنها تخفي خلف هدوئها شيئا ما لا يدركه، فهي تكبره بسنتين فقط، لكن

رزانتها وحصافتها جعلتها تتصرف كمن بلغت الأربعين من العمر، شعرها مربوط كذيل حصان، لا تتورع أبدا عن تغيير تلك الربطة. تلبس فستانا لا يتناسب وعمرها، افترشت الأرض لتضع عليها أطباق الدجاج الساخنة مع الأرز والسلطات، ليختلط صوت أبيه بصوت مضغ طعامه:

- اسمع يا صلاح! لا تقضِ عمرك تجري بعبثية ودون هدف. فالوقت لا يتكرر وما تمضي له إن فات لا يعود وإن أخطأت فالخطايا لا تمحى، قد تغتفر! والأهم أن الفرصة تأتي مرة واحدة وعليك اقتناصها، لا تلتفت لتجربة غيرك إلا لتستفيد، لا يشغلك رزق غيرك كي لا تموت حسرة، ولا تعطِ لأحلامك لونا ورديا صافيا حتى لا يصيبك الإحباط إن لم تحققه، كن كنز نفسك ولا تكن كنز غيرك، امنح لتُمنح.

تندرَ أخي مازن الذي يكبرني بخمسة أعوام، ملامحه توحي دائما بالجدية، وجهه المستطيل النحيل الذي ينتهي برقبة تقفز منها تفاحة آدم وشعره (الأكرت) وسحنته السمراء التي ورثها من جدة من أجدادنا ذات الأصول المغربية، حين وجه حديثه لأبي:

- مالي أراك تنصح صلاح وحده! ألا ترى سواه هنا؟

- مازن! رغم أنك أول ولد لي وتجربتي وقتها قاصرة رغم قراءاتي

عن تربية الأطفال إلا أن عجينتك لينة طيعة فلم تأخذ مني وقتا صعبا لتشكيل شخصيتك ولا أعتقد أن بداخلك نفس تمرد أخيك، فأنا فخور بك أيها البكري.

- كلماتك رنانة يا أبي، لكنها لم تقنعني مع الأسف. فأنا أيضا بحاجة إلى اهتمامك كما يحتاج بقية إخوتي إليك .

أردتُ وقتها أن أستأثر بالجلسة وألا أدع مجالا لمازن كي يخطف هذا المشهد لصالحه، وأعرف أن تمردي وحب أبي لي سبب في نصائحه التي لا تنتهي؛ فحاولت استقطاب أمي ودفعتها للولوج لحلبة الصراع:

- أراك يا أمي صامتة، أليس لك رأي فيما يحدث؟

- أنا أفضل الصمت. فلا أدري هل فشلت في تربيتكما، أم أنكما ما إن كبرتما تنبهتما إلى ضرورة الاستغناء عن رأيي واهتماماتي ونصائحي؟!

امتعض مازن كثيرا وقال رادا هزيمته النفسية:

- لم تقولي ذلك يا أمي؟

- واللّه إنه أمر محير، الأم تحمل وتضع ثم ترضع.. تربي.. تسهر تتعب.. وبلمح البصر يأتي دور الأب بكلمتين وكأنهما السحر، ليحول الدفة من قبطان الوجع في بحر الحياة إلى الربان الغائب الحاضر العائد بكنوز المعرفة وصاحب الحلول السريعة للمشاكل.

- يا أمي لا تُحملي الموضوع فوق طاقته ولكن أبي صاحب تجارب كثيرة لأنه يخرج ويتفاعل... لِم أشعر بدخان الغيرة في كلامك؟

- لا داعي لمصمصة الشفاه على حظي.. من شابه أباه فما ظلم.

- أما أنا فأملتُ جسدي نحو أمي لأقبل يدها فلم أفلح، بعد محاولاتٍ تقبلت ذلك بكل جفاء دون النظر إليّ، رمقت مازن بعتاب على ردوده التي أفسدت الجلسة، أما أبي فأكمل طعام عشائه دون الالتفات لسفاسف الأمور، وتركنا نغوص في بحر العبثية ما بين مناورات وقذائف حوارية. فلا مجال للمجادلة؛ ينأى بنفسه عن المشاكل، فهو في ساقية الأيام التي تخصه. أما لبنى خاضعة كالعادة، تنظر بعينيها نحوي بكل استهجان، وتنهي توقعاتي برد فعل بارد:

- أعتقد أنه يجب علي أن أنام... معارككم الكلامية لا تنتهي.

- تنامين! ماذا دهاك يا لبنى؟ هل تجدين دوري محصورًا في غرفة الحساب ما بين الذنب والعقاب والنصائح، وأنت دوما لا تفعلين سوى النوم والدراسة والطبخ وما إلى ذلك؟ أشعر بك.. قطعة شطرنج تقف على زاوية الحياة، ربما إن جاءتها فرصة تحركت وإلا صمدت كالقلعة كأثرٍ دون تأثير.

أخيرا تدخل أبي لفض موقعة العشاء:

- اخرس! هيا قم من أمامي! واضح أنه لا يوجد جدوى من نصائحي،

لقد تسلط لسانك ليلسع أكثر من سياط هذا العالم.

- لا لا.. يكفي يا أبي! لا يمكن لي ولأخوتي أن نتواجد تحت سقف بيت واحد، لا خصوصية لأي منا، لا مأوى لأحلامنا. إما زاوية في البيت أو افتراش الأرض، عدا لبنى..! فهي تمتلك سريرها الخاص في تلك المساحة الضيقة لأنها أنثى، ما أتعس الحياة وأوجعها... سأخرج من هنا، ضقت ذرعا بما نحن فيه.

وبمجرد أن صفع الباب وراءه، غابت شهيرة وحدها مع الأفكار لترى نفسها على مسافة بعيدة من أولادها، تنهدت من أعماقها ثم عادت لماضيها تتمتم:

- عشت في انعزال شديد عن جيراني، لأنهم لا يسببون إلا الصداع في رأسي من كثرة الثرثرة، اهتممت بتربية أولادي اهتماما دقيقا.. مشاعري كأم لا توفر لي سلاحا مضادا أو درعا واقيا من سهام الأفكار المنقضة على تصرفاتي طوال الوقت مهما انحزت لأي من الأطراف المتنازعة. فزوجي الغائب طوال النهار في ساقية العمل يكسب الرهان دائما رغم اهتمامه الشديد بإبقاء فمه مغلقا ما لم يأكل.. كلماته أشبه بفاكهة عزيزة لكنها بالغة التأثير. لقد أعيتني الحيلة عن حقيقة وجودي بينهم.. هل سأظل مسكونة بين جدران الأمومة ولا عمل لي سوى الخدمة؟! هل فرقت بينهم وأنا

من أراهم بعين الحقيقة؟ لماذا المتمرد الوحيد بينهم هو صلاح.. روحه لا تتقبل الأوضاع كما هي..يريد أن ينشق عن صف الأسرة التي أحاول جاهدة أن أبقيها متماسكة... يا ألله! فهو لا يشبه مازن في تعاونه وحبه وعقله الذي أفرغت فيه كل التجارب.. أرى أن أباه تعمد البعد عنه والتقرب أكثر من صلاح لقرب الشبه بينهما.. وبرغم أن لبنى فاكهة روحه.. فهي المطيعة في كل شيء.. يصطحبها وحدها للقيام بمشتريات البيت والتنزه معها حين يتودد للبحر في عطلاته الصيفية.. عبد اللطيف يحاول في كل الأحوال أن يبقي نفسه خارج المنزل لأطول فترة.. أدرك أن تنافر روحينا أكثر من التجاذب الذي أثمر أربعة من الأولاد آخرهم صادق الذي أتى بعد فترة من احتداد العلاقة والمشاكل المستمرة، حتى إني قضيت أكثر من سنتين عند أهلي منفصلة عنه جسديا ونفسيا، رغم محاولاته المستميتة للإصلاح تركت خلالهما مازن ولبنى معه واصطحبت معي صلاح الذي كان رضيعا بعمر السنة.. راجعت نفسي دوما ولا أقوى على تقبله من جديد.. فلا شيء تقريبا مشترك بيننا! هو محب للتدريس.. الحياة.. سماع الموسيقى.. التنزه والسفر، وأنا منعزلة وأفضل البقاء بعيدة.. نافذة حياتي ضيقة حد الاختناق.. أذكر حين لم يُسمح لي بالذهاب للمدرسة وقتما طلب يدي زميلي الذي

سبقني في الدراسة وحصل على (البكالوريا) ورفضوا تزويجي منه، بدعوى ألا شيء اسمه الحب.. وأنه لا يمتلك شيئا ليقدمه لي؛ لكنهم وافقوا بعدها فورا على عبد اللطيف الذي يكبرني كثيرا.. رغم فرق الأفكار والأجيال فهو رفيق درب لأخي الكبير، حاصل على الدكتوراة وجاهز تماما لتحمل أعباء الزواج. عُين مدرسا في جامعة قطر. فخلتهم على علم بأفضل القرارات المصيرية التي تخصني. نسفوا كل شيء بداخلي وكرهت كل شيء متعلق بتلك الحياة.

شعرت وقتها أن أولادي حجر عثرة في حياتي، جاهدت مرارا لأعبر من طور الانغلاق إلى الانعتاق.. فماذا علي أن أفعل؟ هل أتبع حمية الروح.. أم أتركها تنشطر لينتصر خيري على شري؟!

لعبة الأقدار

رائحة القهوة وصوت الأطباق التي وضعها النادل على الطاولة كانا كفيلين بإيقاظ صلاح من ذكرياته وإعادته إلى الحاضر الغامض، ظل يتلفت باحثا عن الشيخ فلم يجده لتقع عيناه على هاني ذي البنية الضخمة والذي اصطدم به بالأمس، وما إن التقت أعينهما حتى قفز فجأة من طاولته ساحبا الكرسي الذي أمام صلاح وجلس عليه مطالبا من النادل إحضار قهوته من الطاولة الأخرى ثم رحب به وكأنهما صديقين قديمين:

- صباح الخير.. هل تذكرني؟ أنا هاني أنسي، ما هذه الصدفة السعيدة؟ أرجو ألا يكون في نفسك شيء تجاهي، لا أعرف كيف أعتذر لك عما حدث بالأمس... لدرجة أنني لم أتعرف على اسمك.

تعكر وجه صلاح، أمال قبعته للأمام كي يخفي امتعاضه منشغلا بالتهام الطعام الذي أوصى به أبو عدنان له بجانب القهوة وغمغم:

- أمس! ماذا حدث بالأمس؟! عم تتحدث؟! لا أفهم .. هل تعرفني؟!

- هل نسيت؟ كدت أدهسك بالأمس بسيارتي وأعطيتك (كارتي).. تذكرتك من هيئتك وملابسك... وضفيرتك..!

رفع صلاح حاجبيه وألصق نظارته بوجهه بحركة عفوية، أجاب على مضض وقد تعرق وجهه:

- آه.. تذكرتك.. اسمي صلاح.

الهواجس قد شنت حربها ضد تقبله وجود غريب في هذه اللحظة رغم محاولات هاني لدفع (الشيك) الخاص بصلاح تعبيرا عن أسفه ليحبطه النادل بإبلاغه أنه مدفوع بالفعل، حينها ألح على صلاح لإيصاله لأي مكان يرغب فيه فرمقه في صمت وانهمك في إنجاز التهام الطعام الفاخر، قطعت وصلة الحوار عنه مكالمة جاءت لهاني على هاتفه المحمول ثم ما إن أنهاها حتى جذب صلاح إلى رقعة الحديث من جديد، أخرج علبة سجائره المتميزة وأشعل واحدة ثم عرض عليه واحدة فهز رأسه معبرا بالرفض، عبر له عن ارتياحه له وأخبره أن في تلك الحياة القليل من الأرواح المتآلفة من مجرد موقف تعارف وأن بالتأكيد وجوده أمام سيارته لم يكن من قبيل الصدفة بل إن القدر هو السبب لذا فقد وجد نفسه يجلس على طاولته وراح يفضفض له عن حياته وكيف أتى هاربا للدوحة من سوهاج التي تقع في صعيد مصر، الصعيد الذي له قوانينه الخاصة جدا مما يفرضها بقوة على تلك المجتمعات ولا علاقة لها بقانون البلاد، وأن هروبه مستمر منذ عشرين عاما من ثأر قديم، شاعرا بالظلم الشديد

والحمل الثقيل على نفسه فيفرغ تلك الضغوط بتدريب جسده يوميا على رفع الأثقال وألعاب (الكونغ فو) وأحيانا (الكاراتيه) لكنه يخشى وقوع ما لا تحمد عقباه وتنتهي حياته برصاصة رغم أنه لم يفكر بوما بالعودة إلى بلده فالثأر لا يعرف التباعد الجغرافي ويظل يلاحقه الهاجس كظل أسود حتى اليوم، لم يوقفه صلاح عن الحديث لكنه ظل يطالعه باندهاش شديد وتعابير وجهه انكمشت لتخلق داخله تساؤلات لا نهائية وتوجس الخيفة منه ومن قصته.

ثم فجأة أظهر صلاح تعاطفا مع قصته التي تشبه من وجهة نظره المسلسلات التي كثيرا ما كان يتابعها في (التلفزيون) ورغم تحفظه حاول تغيير الأجواء مازحا:

- ما هذه (الدراما)؟ تشبهني تلك الأحداث بمسلسل ذئاب الجبل الذي كنت أتابعه من وقت بعيد! هل أنت أحد أبطاله!

انتفض فجأة هاني غاضبا وهمَّ بالوقوف وقد استنفرت عروقه من الغضب:

- أتستهزئ بي؟ من الواضح أني أخطأت بالبوح لك بحكايتي.

أمسك صلاح بيده واعتذر له وأقنعه بالجلوس من جديد فقد عبر عن شعوره بطريقة خاطئة وأكد أنه كان يحاول ممازحته لكن من الواضح أن دمه يفور سريعا ولا يتحمل، ثم كيف يحكي لغريب

حكايته وهو مرعوب من فكرة الموت والثأر؟! ليقاطعه هاني:
- ما تراه في المسلسلات يقترب من الواقع لكن لا يشبه مرارته وأعتقد أنك لو عايشت واقعي للعنت نفسك ووجودك في هذه الحياة ألف مرة وما كنت لتسخر مني.. إن قصص الواقع أسوأ بكثير مما تظن! أما عن بوحي لك فإنني قد وجدت في سحنتك وقارا وفي كلامك لهجة تختلف عني ربما قد بثت في قلبي بعض الطمأنينة.
- أعتذر مرة أخرى فلم أقصد "اللي يشوف بلاوي الناس تهون عليه بلوته".
- بلوتك! أخبرني ما هي وهل أستطيع مساعدتك؟ سبق وأخبرتك بأنني على استعداد لذلك.. سمعت عن "جدعنة المصريين" لذا لا تخجل مني... وأي شيء تطلبه ستجد "رقبتي سدادة"، أعرف أنه لا ذنب لك لتسمع مشاكلي، سامحني كنت ظلا ثقيلا عليك لكني توسمت فيك الأصالة وعندي إحساس شديد بالذنب تجاهك.
- أنا أكيد ممن تقول ورغم صعوبة الثقة في أيامنا الحالية بعد كل ما يدور بنا من أزمات وأوبئة وأمراض لكن ثقتك بي أقدرها جدا، وكنت أتمنى أن تبحث معي عن مكان لمبيتي..
- تريد مكانا وشقتي موجودة! أنا أسكن وحدي في شقة متواضعة وأحيانا يبيت معي زميلي بالعمل محسن الذي ينتظرني على الطاولة

الأخرى، إن أردت فتعالى أعرفك عليه وأستضيفك.. إن أحببت فمرحبا بك.

هذا الترحيب السخي جعل من صلاح شخصا متوترا مهزوزا خائفا، فبينما أبو عدنان ابن صديقه الأقرب يرفضه.. الغريب يرحب به فيتساءل مع نفسه منذ متى تلقي الدنيا بكنوزها هكذا َعرَضا في شارع الحياة؟ ورد بطريقة ممزوجة بفكاهة مصطنعة:

- شكرا لك، كنت أمازحك لأتأكد أنها ليست "عزومة مراكبية"..

انفجرا ضاحكين بعد هضم هاني فكرة أنه يحاول أن يكون خفيف الظل ويداعبه بكلمات مصرية معروفة.. فألح عليه أن يتصل به حال رغبته بالسكن معه إن كان جادا في البحث ثم تبادلا التحية ليعود هاني إلى محسن الذي انتظره على الطاولة المقابلة لهما دون أن ينطق بكلمة أو حتى أن يتذمر لكنه كان يرمق صلاح بنظرات حادة من وقت لآخر.

أسرع صلاح بمغادرة المكان متجولا في ساحة السوق والحمام يطير حوله، هذا الحمام ربما لم يتغير أيضا خلال سنوات غيابه لكنه يذكره بأوقات المراهقة وتربيته لأنواعه المختلفة... "قاقوة" الحمام الزاجل المفضلة لديه جاء بها فرخا من السوق.. حتى كبرت في قفصها الذي أعده لها في شرفة المنزل الضيق، كيف كانت تأتيه

كلما دخل وتدور حول نفسها مرحبة به! استطاع تنمية هواياته المتعددة لتدر عليه دخلا، يأتي بالأفراخ ويربيها تربية جيدة ثم يبيعها من جديد ليكسب أضعاف ثمنها، كان التراب يستحيل في يديه ذهبا كما كان يقول عنه والده دوما.

تلفت حوله كثيرا وكأنه يودع المنطقة بأكملها فلم يعد أمل المرور بها متجددا بعدما هدده بشكل مبطن أبو عدنان من الاقتراب! صار يتوقف عند المحلات والمطاعم يشم روائح الطعام الشهية ويتذكر العلاقة الوطيدة بينه وبين السوق وكيف سيفقدها بمجرد الرحيل، تنقل متفرجا بين محلات الهدايا التذكارية حتى وصل حده من التعب فجلس على أحد الكراسي الخشبية المستطيلة والمتنوعة في الساحة ليشعر باختناق محيطه وفراغ جعبته من الحيل، قرر أن يمارس دوره المعتاد في اللعب على وتر الأمر الواقع فلا يمكن أن يكون له عائلة وتنكره حتى لو هددوه، هذه المرة سيراهن على طيبة قلب أبيه رغم مقاطعته له فودع المكان وتوجه لمنزلهم في منطقة السد وهي منطقة شعبية قديمة أصر والده على السكنى بها بدلا من السكن المخصص لهيئة التدريس والموظفين بالجامعة، قرع باب الشقة كثيرا لكن دون مجيب، نزل إلى حيث يجلس رجل الأمن وتبادل معه حديثا مقتضبا ليكشف له عن جارة الدكتور عبد اللطيف التي تسكن الدور

الأخير وهي أقدم السكان بالمبنى.. مدام فاطمة.. وهي عجوز في السبعينات من العمر لها ذاكرة حديدية، شخصية نباتية ومحافظة على رشاقة جسمها رغم عمرها المتقدم، ملامحها ضاعت وسط التجاعيد المنتشرة بفعل الزمن لكن عينيها الخضراوين يسكبان أملا في القلوب وربما بإمكانها أن تساعده، ليصعد إليها واستأذن بالدخول خافيا وجهه وأخبرها أنه من طرف الدكتور عبد اللطيف جارهم وله أمانة يريد إيصالها إذا كان لديها معلومات، ففهم من ثرثرتها عن هجرة "لبنى" و"مازن" إلى أوربا لكنها لا تذكر أي بلد بالتحديد، وانتقال الدكتور عبد اللطيف مع صادق من المنطقة بعد فضيحة ابنه، حسب ما سمعت من زوجته فهي لم تترك أي جار إلا وأخبرته عن قصة صلاح ليتداولها الجميع لفترة طويلة من الزمن. فجأة استهجنت تصرفها وتوقفت برهةً ثم قالت:

- لم تنطق بأي كلمة منذ لحظة دخولك!

- هل تستطعين معرفة أي شيء عن عنوان الدكتور.. ما زالت الأمانة بحوزتي!

- أصرت زوجته شهيرة على تغيير المنزل ولم ترد أن يخرج ابنها ويعرف لهم طريقًا لذا لم يخبروا أحدا ولكن صادق يمر كل شهر تقريبا لتفقد الرسائل أو أي جديد.. سأتفق مع الأمن أن يخبره

ليزورني وأعطيه الأمانة.

- إذن سآتيك بها الزيارة القادمة وأتركها عندك... أو لو استطعت ترتيب موعد مع الأستاذ صادق أكون شاكرا لفضلك.

- اتفقنا.

- أخذنا الحوار ونسيت أن أضيّفك شيئا، ماذا تحب أن تشرب؟

- أشكرك.. أنا في عجالة.. سأعود لك مرة أخرى.. هل تسمحين أن أسجل رقم هاتفك؟

- بكل سرور.. لا تقلق.

أخرج صلاح منديلا من جيبه لتعرق وجهه من الرطوبة البالغة ذروتها هذا الشهر فالجارة لم تشعل سوى مروحة قديمة منذ عهد بعيد ولكنها لم تخفف شيئا من الطقس القاسي لشهر أغسطس لكن (كارت) هاني كان له بالمرصاد.. دقق النظر فيه وابتسم متذكرا قول أبيه: "الفرص لا تأتي مرتين" تمالك نفسه وزفر زفرة طويلة وهو يستأذن من مدام فاطمة أن يقوم بعمل مكالمة من هاتفها، أعطته الهاتف وضغط على الأزرار سريعا وهو متعجب من وجود هاتف أرضي حتى يومنا هذا، ثم ابتسم وهو يتفهم حب الكبار للاحتفاظ بما يخص حياتهم القديمة فهم لا يشعرون بمرور السنين وكأن العالم توقف عند تسعينيات القرن الماضي... على الطرف الآخر رد هاني:

- أهلا.. مساء النور.

بصوت خفيت:

- أنا أحتاج الغرفة التي عرضتها عليّ اليوم، فهل أنت جاد يا أستاذ هاني في إمكانية إقامتي في شقتك؟

- أكيد لا زلت عند وعدي.

وما إن جاءته البشرى حتى تغيرت نبرة الخوف إلى فرح وتحولت نبرته الضعيفة المتهالكة إلى صوت مملوء بالأمل:

- أعطني العنوان وسآتيك فورًا.

إن صلاح لم يفقد بعد قدرته على حفظ العناوين والأرقام بسهولة فذاكرته هي الشيء الوحيد الذي حافظ عليه نشطا متقدا باستمرار، أغلق الهاتف وشكر مدام فاطمة ثم أطلق ساقيه لريح النجاة، ليجد نفسه أمام باب شقة هاني ليستقبله استقبالا يوحي لمن يراهما أنهما معرفة قديمة وبادره بالكلام مع ابتسامة متواضعة على شفتيه:

- سامحني إن استعرت الغرفة بعض الوقت لأقيم معك.

- لا بأس هذا من عظيم سروري على الأقل سأكفر عن خطئي.. تفضل بالدخول.

بخطوة متثاقلة دخل صلاح الشقة ليجدها متواضعة لا نوافذ فيها، ، فقيرة في أثاثها لا تحوي سوى أريكة متهالكة نوعا ما يميل لونها

للرمادي ويقبع أمامها (تلفزيون ال سي دي) مقاس اثنتين وثلاثين بوصة. ليتعجب صلاح لقدم طراز الشاشة، فقد كان يمتلك مثلها قبل سجنه وكأن الزمن توقف منذ ذلك الحين، وتمتلئ بسحب من الدخان المتكوم. عبر به هاني من الممر الضيق الذي يفصل الغرف عن الصالة وفتح له بابا:

- تفضل.. هذه غرفتك.

تأملها صلاح بكل رضا فهي غرفة بحجم أربعة في أربعة، تكبر كثيرا عن المكان الذي قضى فيه عشر سنوات وتمتم بالحمد واستأذن منه ليعبر عن رغبته في البقاء وحيدا إن أمكن لبعض الوقت، فهز هاني رأسه بالإيجاب وهو مصدوم: - كما تحب.

وضع صلاح حقيبته على الأرض ثم أسرع لفرد جسده المتعب على السرير الذي غدا طبيعيا دون حواجز ولا زائر علوي ينام فوقه ويزعجه بشخيره المستمر ليلا ولا صراخه نهارا، ونام نوما عميقا حتى استيقظ على نقر الباب فهب معتدلا محاولا أن يستدرك أين هو؟ وضع إصبعيه على جبهته يحركهما ثم هب لفتح الباب ليجد هاني مبتسما يحمل بين يديه صينية (بلاستيكية) عليها طبق من الفول والفلافل (الطعمية) والمخلل، وشاي أسود في كوب من الزجاج وبضع قطع من الخبز الأسمر... أخبره أنه نام أكثر من ثمان عشرة

ساعة كاملة لدرجة أنه قلق عليه..

استفزت الروائح شهية صلاح، أخذ من يده الصينية شاكرا ثم استأذنه مرة أخرى ليبقى وحيدا، لم يشأ أن يضغط عليه ولم يلح بالدخول فقد باغته بإغلاق الباب من جديد.. ثم وضع الصينية على السرير وأكل بنهم شديد فلم يترك أي أثر في الأطباق ثم أسند رأسه إلى الوراء غير مصدق أنه خارج صندوق حبسه، زاغ بصره وحوّل الكرسي الفارغ أمامه إلى منصة استجواب، توهم وجود أمه أمامه، أجلسها على الكرسي وصار يسألها:

"لماذا يا أمي تركتني وحيدا أعتمد على نفسي في كل حياتي وكل فصل دراسي، لماذا يظل "صادق" الأخ الصغير الذي يحتاج حنانك، اهتمامك، رعايتك، وحبك السفيه المتطرف، لماذا تتركينني بصحبة أختي الكبرى لبنى، تلك الصامتة الهادئة التي يعقب هدوءها العواصف لكنها في نظرك نموذجٌ للبنت المطيعة، مع إني أراها من منظوري عبدة مسخرة للخدمة بطبيعة حال بنات هذا العالم الغريب! وماذا عن أخي الكبير مازن الذي تتنافر روحي من روحه نجتمع دوما مع والدنا الذي لا يعرف غير شقوة العيش بعمل صباحي ومسائي فيلملم ما تبقى من فراغ ليبتسم لنا حول مائدة العشاء التي تعقد صفقاتها مع بطوننا بملذات الطعام التي يشتهيها وتجعله

منتشيا وأنا أنظر لهذه الحالة نظرة الرفض والتمرد."

قطعت خيالاته خصلات الضوء التي تشق طريقها متسللة لمنتصف المكان من نافذة الغرفة الضيقة فقام بفتحها ليطل من جديد على الحياة، نظر للشمس التي كثيرا ما حرم منها داخل السجن إلا في لحظات نادرة أو حين كان ينقل بالإسعاف إلى المستشفى بعد أن قام بإضراب عن الطعام لأكثر من مرة والتي تشابه إضرابات اتبعها اعتراضا على سياسات والدته في الماضي وحبها الشديد لأخيه الصغير صادق الذي نال قسطا كبيرا من اهتمامها ربما لأن بياضه وملامحه تقترب من جدته التركية، وبدأ يتمتم لنفسه:

"لم أدرك يا أمي حتى اللحظة لم تقيمين قلبك وسط كل تلك الصروح والقلاع الجامدة! قلبك حجر صوان لم تدكه الهزائم والأحقاد والنزاعات لكن الدنيا دكت قلبي عند التخلي، النكران، الجحود ممن حولي والإحساس بالقهر الممارس ضدي، التعذيب وكبت حرية كلمتي أو حتى الاستغاثة كل ذلك جعلني أدرك تماما أنني أصبحت الآن نسخة طبق الأصل منك، لم يعد يؤثر بي شيء بعدما فقدت كل شيء لكنني تعلمت أن أنسى كل هذه الجروح خاصة حين أغمس روحي في بحر الحب مع نساءٍ لا يشبهن روحك أبدا."

عاد للسرير من جديد وغمر وجهه في الوسادة وبكى بحرقة وهو

يعيد على نفسه خواطره:

"كم أود أن أكون الآن على أبعد نقطةٍ من الأرض..أسفاري ورحلاتي والمسافات التي قطعتها في حياتي..لا تشابه تلك اللحظة.. حياتي!.. ما الذي فعلته بنفسي.. لربما لا تعرفين يا أمي لماذا هربت من حضنك المتحجر سريعا إلى حضن سارة!"

مفتاح الحياة

سارة.. التي اقتربت من الثلاثين عاما ذاك الوقت، مطلقة ولديها بنتان يقيمان مع والدهما في العراق، حنطية البشرة ذات شعر مخملي، تعمل في محل للعطور جوار بناية صلاح. تعرفت إليه حين اشترى منها أول قارورة عطر باريسي في سبتمبر عام ألفين وواحد مع بداية الفصل الدراسي الأول للجامعة، خطفته برمقة عينيها المكحلتين وعذوبة صوتها الخفيض وقدرتها على شد الانتباه، كذلك خبراتها الفائقة على المدّ في عواطفها له ثم الانسحاب بهدوء حتى إن غابت تغِبْ عن ناظريه بمهارة واحتراف صيادي الكنوز، احتوته كشابٍّ يافع ما تزال طموحاته في طور البداية لم تتطور لمراحل الرغبة، ملّت إحساسها المتواصل بأنها جسد شبه مستباح لصاحب المحل الذي كثيرا ما يتحرش بها في غرفة المخزن! فقررت نصب شباكها حول صلاح الشاب الأنيق اليافع، امتدت علاقتهما على مدى خمسة شهور لتتحول إلى حب حقيقي من جهتها، فتطورت رغبته فيها ورغبتها فيه حتى إذا ما فار تنور مشاعرهما وقعا في شرك حملها ونظرا لقلة خبراته الحياتية آثر الاقتران بها سريعا بمساعدة

أبيه الذي فضل ستر الفضيحة لكنه قرر إخفاء الأمر عن أمه كي لا تقوم قيامتها. شابه الفرح والقلق لكنها بدت فرصة ثمينة للابتعاد عن منزلهم أخيرا وكل ما تم توفيره من عمله الصيفي المؤقت والمربح خلال سنواته الماضية وبمساعدات أبيه بعيدا عن عيون أمه، أقام لها حفل زفاف يليق بها ويُحكى عنه في محيط المكان الذي تسكنه، وجهز به الشقة الصغيرة التى استأجرها بكل الأجهزة والمفروشات المطلوبة، ومن لحظة وصولهما شقة العمر بعد انتهائهما من مراسم الزفاف وأفراحه، توجه صلاح سريعا نحو الحمام وأغلقه تاركا سارة تخلع عنها ثياب العرس وحدها، نظر جيدا إلى المرآة وكأنه يسدد دينا قديما لنفسه ودارت منازلة لاحتمالاتٍ لم يحققها:

- مع الأسف يا ليلى أنت لا تشبهين سارة في شيء، عذبتِني ولوعتني شوقا بالتمنع عن الاقتراب أو حتى الحديث... رغم سهام حبنا العذرية التي وجهت بين قلبينا، تركتني دون أي رد فعلٍ ينم عن القبول، ولا حتى حين حاولت إثارة غيرتك وأنا أبلغك بزفافي. ما أحمقني من مراهق دخل الجامعة، يحب جارته المراهقة البلهاء التي تبالغ في التمنع والكبرياء!

وحين طالت فترة وجوده بالحمام، بدأ القلق يساور العروس، فهي قد انتهت من خلع فستان زفافها (واكسسوارته) وارتدت قميص نوم

ناريًّا، تشبه فاكهة ناضجة تحلم بقطفها من جديد، فسارعت بنقر الباب بخفة وشعرها متدلٍ على كتفيها لتتحول إلى لوحة فنية بإضاءات تكشف عن تضاريس جسدها وظلال تخفي دلعها:

- حبيبي! هل ستقضي الليلة في الحمام أم ماذا؟

أخرس أفكاره كي لا تسمعها زوجته وتيقن أنها بانتظار تكرار مهمته الكبرى ولا يثنيها الحمل عن الرغبة:

- دقائق.. سأنتهي من حمامي وأخرج.

لم يطل انتظار سارة فهي تعلم كل ما يحبه صلاح، خبراتها الزوجية السابقة علمتها الكثيرمن الحيل، توقن بأنها تكبره سنا ولكن على علمٍ كيف تطفئ شهوته.

تلك العلاقة الأولى في حياته التي فتحت طريقا لم يكن ليطرقه. فمنذ عرفها وقد أهمل دراسته ليجري وراء تدبيرلقمة العيش التي تدر الكثير من المال، يرى السعادة في عيونها بعطاءاته المستمرة، يعمل ليل نهار في بيع قطع غيار السيارات الفارهة ويذهب كل يوم جمعة ليلتقط قطع الغيار التي يتمكن بها من إصلاح (الموديلات) القديمة من السيارات (الأنتيك) والتي تعتبر للخليجيين وأصحاب المال هواية كبيرة للاقتناء، كان يتابع محاضراته في البدايات بكل اهتمام حتى صار نادرا ما يرى قاعة محاضراته، فقط في امتحان كل

(كورس) ينجح بأعجوبة، مستخدما ذكاءه وقدرته السريعة على الحفظ والتذكر. تعلم استثمار الوقت كما نصحه والده فلم يقطع تمريناته المكثفة والتي بدأت من الالتفاتة الأولى من مدرس الألعاب في المدرسة حتى قادته لبطولة عام ألفين واثنين في الجامعة، والتي تربح منها ما لم يتوقعه، إلى أن وقعت النكبة الأولى في حياته حين تقاعس عن حضور الامتحانات النهائية وفشل في تحقيق النجاح في مواد السنة الرابعة له عام ألفين وخمسة لتنهار أمامه الدنيا!

يومها عاد لزوجته وصفع باب الشقة وراءه، هالته لا مبالاتها بما يدور فأشعل في نفسه غليان ثور هائج. لمحها تحضر العشاء وهي تلبس (روبا) من (الدانتيل) الأسود لا يستر قدر ما يكشف وتحته قميص نوم قصير من (الساتان).. صب جام غضبه عليها فهي لا تفكر قط إلا في لحظات المتعة وهو في غضبه لا يفكر إلا بكيفية حل سريع لمشاكله. حاولت التقرب منه وتقبيله لتهدئ روعه فما كان منه إلا أن قال حانقا مهددا:

- ألا يكفيكِ آلاف الريالات يا سارة التى أضعها في هذا البيت ورغد العيش؟ ألا يكفيك المال الذي تكسبينه من عملك أيضا وتحولينه إلى ذهب ومجوهرات؟

- خيرا! ما بك حبيبي؟

- ومن أين لنا بالخير بعد رسوبي في السنة النهائية؟

فاغرة فاهها:

- ماذا؟ ما الذي حدث؟

لم يترك لها فرصة إنهاء أسئلتها، أمسك بها محاولا إلقاء اللوم عليها وعلى طموحاتها، لإقناعها وتصديق نفسه أن سعيه وراء المال ورغباتها التي لا تنتهي هما سبب رسوبه، فقد أعاد عليها قصته المكررة:

- أهملت الجامعة لأجلك، تركت أهلي ومنطقتي لأتزوجك، متحملا نفقات مظاهر الترف التي تحلمين بها... تركتك تنفقين مالك على ابنتيكِ حتى وقع في يدي خطاب منهما وحجبته عنك وتظاهرت بأنني لا أعرف.. توقعت أن تخبريني ولكنك أخفيتِ الأمر!

أكمل صراخه وقد أمسك بكتفيها، هزها بعنف إلى أن اصفرّ وجهها وسقطت أرضا... حاول إفاقتها فلم يتمكن، طلب الإسعاف وسريعا مضى بها إلى المستشفى.

قضت سارة أسبوعا كاملا هناك، متعبة ومرهقة بعد أن تسبب شجارهما بسقوط جنينها، كانت صدمة كبيرة له.. لم يصدق أنها حملت بطفل آخر للمرة الثانية رغم تشديده عليها بالانتظار مدة كافية حتى يكبر طفلهما الأول سعيد، لكن من الواضح أنها لم تكترث

لما قاله وامتنعت عن أخذ حبوب منع الحمل.

تنفس صلاح بعضا من الهدوء وقت جلوسه في (كافيتريا) المستشفى لشرب قهوته كعادته كلما أراد الاطمئنان على زوجته. ذات مرة هب باحثا عن مكان المواليد الخدج لتخبره الممرضة أنه في الدور السابع، ووقف أمام الحاجز الزجاجي ليتأمل كل الأطفال المحاطين بالأجهزة الطبية كيف يصارعون وجودهم بالحياة، هذا المشهد أعاده تحديدا ليوم وقوفه خلف زجاج الغرفة منذ ثلاثة أعوام باحثا عن ابنه الذي ولد في الشهر السابع من الحمل، وكيف تفتق ذهنه عن حلول غير مسبوقة لإعادة ترميم العلاقات المتهالكة والمتهتكة مع أهله! كيف حاول إنعاش العلاقات الميتة مع أمه حين أخرج طفله بعد أسبوعين من الرعاية الطبية ليسرع به إليها.

طرق الباب منتظرا الكثير.. شاطحا بأفكاره (كبندول) يطرق شرق عقله وغربه، ارتجف قلبه وهو يراهن على كسب قلب أمه من جديد. لبنى.. فتحت الباب، لكنها ازدادت نحولة بحيث يتمكن الناظر لها من مشاهدة بروزات مفاصلها، فتحت فاها بحجم دهشتها على فتحة الباب:

- صلاح؟

- صلاح وسعيد.

متجهمة وقد ربعت ذراعيها وعلا صوتها :

- ماذا تريد؟ أبعد غياب شهور تأتينا بطفل وتقول لي سعيد!

- أ.. أجل!على اسم جدنا.

- أتقول جدنا؟ أضحكتني. وصاحت:

- هيا اغرب من هنا.. يكفينا ما فعلت، يكفيك كسر قلب أمي وحرماننا من لحظة فرح، يكفينا تندرات الجيران والهمز واللمز بعدما مررت الخبر لنا عبر ليلى جارتنا، ألا تستحي أن تأتينا بعد كل هذا؟! ألم تقل مسبقا أنك لا تريد العودة ولا حتى أن تعرفنا.. ما الذي تغير الآن؟!

- لماذا أراك دائمة التنمر؟ فهل استكثرت زواجي قبلك؟ انظري لنفسك في المرآة ولو لمرة واحدة!

تناهى إلى أسماع والدته شهيرة صياحٌ متبادلٌ متضمن صوتا تعرفه، بل تحفظه عن ظهر قلب فهرعت وقد تحول حاجباها إلى علامتي استفهام، لتنظر إليه بعينيها اللتين يشبهان سواد العذاب الذي أسقاها إياه حين غاب عن البيت دون مقدمات! قامتها أطول من أبنائها، لكنها أشبه بجبل تعاقبت عليه الانحسارات والانكسارات، وبهدوء شديد على عكس طبعها الغاضب بدأت الكلمات تنحدر بتهكم من فمها الصغير بينما مسحت أنفها الذي تحسس من رائحة عطره

النفاذة بمنديل لا يغادر يدها المتحجرة:

- ماهذا النور الذي حل علينا اليوم.. صلاح؟!

- أمي أمسكي به واحتضنيه، إنه حفيدك سعيد، باركي لي أصبحت أبا.

تراجعت قليلا للوراء وعطست من جديد، لملمت ما تناثر من روحها ودققت في وجهه:

- أنا لا أولاد لي سوى مازن ولبنى وصادق، من أنتما؟! لا مال لي لأعطيك إياه أيها المتسول.

ثم أدارت ظهرها لتغادر الباب وتغلقه بعد أن شدت لبنى ـ التي ابتسمت ابتسامة تهكم واضحة ـ من يدها

بسرعة خاطفة عارض غلقها الباب ولحقها إلى بهو المنزل الصغير متغاضيا عما تقول، يمسك طفله في يد ويقبل رأسها في ذات الوقت وهو يقبض ذراعها وأسر غضبه في نفسه ثم أحاطها بيديه متوسلا بعد أن رمى في حضنها طفله الوليد، تبادلت لبنى وشهيرة النظرات، توقفت الأصوات لوهلة ولم يعد يسمع سوى نبض أمه الصاعد شهيقا وزفيرا بقوة حين لمست بأناملها جسد الوليد ثم شرع سعيد بالبكاء، صلاح كان يهمس لنفسه مكررا الرهان: - الصوان سَيَرق أنا متأكد! لقد غدرتها اللحظة وباغتتها، نظرت للوليد، لمست يديه الصغيرتين،

ما انفك بكاؤه حاولت أن تستوعب ماذا يحدث لها، كيف اهتز كيانها ومشاعرها التي تحولت من حالة الجمود إلى حالة ذوبان جليد قسوتها أمام براءته وكررت على نفسها قول: أول حفيد!
مستنكرة فعلة أخيها:

- أمي ما بك صامتة؟ هل ستسامحينه على ما فعل؟

- ....

قبلت به أخيرا واحتضنت صراخه، عدلته على كتفها وهدهدته ليهدأ، مر الوقت هكذا تنظر له وتحتضنه وتقبله حتى استكان، لم يفت عقل شهيرة حسبانا جمعا وطرحا من آلامها التي اعتصرت قلبها حين غادر صلاح المنزل دون مقدمات لتتيقن أن غيابه الغامض وعودته بوليده يفجر بداخلها نزاعات ما بين الغضب من اختفائه في هذه السن المبكرة، فهو ما زال طالبا في الجامعة، فكيف صار أبا؟ كيف غاب وسرب الأخبار عبر الجيران؟ حتى عودته أشبه بعودة صلاحٍ آخر! وما بين الفرحة التي لا مقدمات لها أبدا بل أعقبتها مفاجآته المتتالية وبين الألم والوجع، تيقن صلاح أنه عرف من أين تؤكل كتف الحنان، ومن أين يدق الحجر الصوان لينفلق دون أضرار.

ابتسم بينه وبين نفسه وهو يرتشف آخر ما تبقى من فنجان قهوته الداكنة التي تشبه لون عينيه، وأعاد التفكير كيف كانت زياراته

لأمه مع سعيد فرصة عمره التي لن تتكرر للفت النظر والاهتمام، رغم اشتراطها ألا تقترب من تُدعى زوجته من بيتهم فهي لا ترغب برؤيتها أبدا؛ لقد سرقت فرحتها وسرقت اللحظة التي تنتظرها كل أم، ولطموحه في تسعة أعشار من الرضا قرر الفصل التام ما بين سارة وشهيرة، تعلقت أمه بعد هذا الموقف بحب لم تعرفه من قبل واعتادت وجود سعيد في حياتها! لتتناوب رعايته هي ولبنى ـ التي أُرغمت عليها ـ نال الدلال الذي يحلم به بدلالها لابنه.

ما ساقته الريح للروح

حين أفاق من ذكرياته وجد نفسه ما زال خلف زجاج غرفة الأطفال الخدج ليتفجر داخله صراع جديد، فقد جنينا لم يعلم به وفكرة استعطاف والدته من جديد ستتطلب مجهودا إضافيا للإقناع، فلا بد من تغيير بعض عناصر القصة لتكون منطقية مع الوضع في الاعتبار احتماليات قبول أو رفض توسلاته. سريعا أخرج زوجته من المستشفى ليعود بها للمنزل ورتب أفكاره كي يستعطف في أمه كل الحيل لتقتنع بحاجته للعون.. فمهما كان ظلام غرفة قلبها إلا أن أحاسيس الرجاء كانت تجد موضعا من الرحمة والحنان لديها. فعلى قدر تصديقه لوجود القسوة والغضب في أعماقها.. شعر بصعوبة استخراج هذا الحب المردوم، ظن أنه يحفر بحثا عن بئر حنانها الذي شارف على النضب، لم يمتعه هذا الفيلم السخيف الذي سيقدمه لأمه لكنه اقتنع بنسبة نجاحه، سيضغط عليها بكل ما أوتي من مال ليحصل على ما يريد.

قرع الباب لتفتح شهيرة.. دخل مسرعا وبان على وجهه القلق والتوتر مصرحا لها:

- أمي أريد مساعدتك اليوم قبل غد.

- ما هذه الصفرة التي تعلو وجهك؟

- أرجوك ساعديني يا أمي، لقد رسبت بالجامعة وأتمنى لو ساعدتني للعودة من خلال معارف أبي.. أو معارفك.. أنت لا ترضين ألا أحصل على (البكالوريوس) أليس كذلك؟

- لم تخبرني بما حدث؟ وكيف أساعدك هكذا دون فهم؟

- سارة سقط جنينها ميتا، وللتو أخرجتها من المستشفى! شغلت بتعبها وتبعات وجودها هناك ولم أرد إخباركم كي لا تقلقوا ولهذا السبب لم أذهب للامتحانات!

مندهشة: لا حول ولا قوة إلا بالله، أحملت زوجتك مجددا؟ أنت لا تخبر أحدا بشيء كالعادة، وهاتفك كان مغلقا لمدة طويلة... فكيف لي أن أعرف كل هذه المصائب؟

نظر لها متحفزا:

- أخبرتك الآن يا أمي! وإن رفضت مساعدتي فأخبريني لأتصرف..

انتفض ليمشي فقبضت على يده وأقعدته ثم قالت بحزم:

- سأرى ما أستطيع فعله لأساعدك ولكن بشرط.. أن تضع لي مصروفا لابنك الذي أرى أنك نسيته عندنا وسط كل ما يحيطك.. والعمر يمضي...

رد بعصبية:

- لم أنسه يا أمي! أنت تعلمين أن كثيرا من الأقساط بانتظاري وأخبرتك عن حالة سارة، ألا ترحمين حالتي النفسية؟! مصيبتان في آن واحد! الآن لا وقت لمجادلتك.. لك ما تريدين.

ثم مد يده ليخرج الخمسة آلاف ريال المتبقية في جيبه بعد محاسبة المستشفى وناولها إياها حتى انفرجت أساريرها وارتسمت ابتسامة على شفتيها كحدثٍ فلكي نادر:

- إذن سأرى كيف بإمكاني تقديم التماس للجامعة.. لا تقلق.. سعيد في أمان معي.

قررت شهيرة مساعدته رغم تجاوزات ابنها اللامسبوقة، إلا أنها استعانت برفيقتها وصديقة عمرها زوجة الوزير وقدمت له بنفسها التماسا كي يعود لجامعة قطر من جديد..

تيقن وقتها صلاح أن المال يعيد ترميم كل شيء في علاقته مع أمه وتلك النقطة في صالحه ومن أهم مكاسبه الحياتية فيما بعد. لتظهر له مشكلة أخرى من سارة التي امتنعت بعد خروجها من المستشفى عن مساعدته، لرفض أمه لوجودها كزوجة له وسط عائلته. فهي منبوذة، بعيدة باستمرار مما يؤجج نيرانها، استعادت عافيتها البدنية وكذا عافيتها الفكرية. فمرة تلو الأخرى تحقن عروق زوجها بمصل

الحقد على إخوته.

حتى وجدت فرصة سانحة ذات ليلة لتمد في أرض قلبه جذورا للكراهية وسقتها من ماء حقدها وضيقها لتنبت في روحه شجرة عامرة بثمار السواد. ورغم كل ما يحكيه لها عن إحساس أبيه وإخوته بحب سعيد.. إلا إنها استمرت في تغذية بذور الفتنة لتمهيد الطريق الذي يفضي في النهاية إلى ما تريد من فرقة بينهم.. فراحت تناوشه:

- وماذا عني؟! هل سأظل هكذا في الظل كأنني جئت لكم بالعار مثلا؟! أنا أم ابنك، كيف تتغافل عن تجاهل عائلتك لي؟!

مقاطعا: - لقد اتفقنا يا سارة وأنت قبلت.. فات الأوان.. مرت أربع سنوات على زواجنا.. فما الذي جد الآن؟

- بماذا قبلت؟ قلت لي إن الوضع مؤقت ولن يدوم طويلا.

- أرجوك.. أجلي هذا النقاش، فأنا في غنى عنه.

- أنت لا تعرف سوى التهرب من مواجهاتي، ومن وقت لآخر على مدى الأربع سنوات أشتكي لك وأنت تصم أذنيك فلا تسمعني..

- اصمتي الآن.. لاتضيفي المشاكل على رأسي.. يكفيني مازن!

فصمتت ونظرت له نظرة استنكار حتى أباح بمخاوفه لها:

- أخبرني صادق مؤخرا أنه يتجنب ملاعبة سعيد وينبذه ولا يتفاعل

معه.. كما السابق.

- وتقول لي اصمتي! لم أشعر في كل مرة تحكي لي فيها عن معاملته لك بأنه يحمل لك ضغينة ما؟! هل تعتقد أنها اكتملت بنيران الغيرة لأنك تزوجت قبله؟ لا بد لك من موقف الآن! فأنا لم أعد أحتمل هذه الإهانة.. وهذا ابني الذي تركته عندهم بحجة الرضا، حتى أخوك يرفضه.. سيمضي العمر كله وأنا أنتظر.. يكفي هذا أرجوك أريد ابني.

- يا ألله! لا فائدة منك! سأخرج من هذا البيت الكئيب!

سكبت سارة وقودها على عود الثقاب المتقد في قلبه لتتفجر بداخله مشاعر الغضب حتى قرر زيارتهم فجأة.

- صادف أنه يوم جمعة، وقت طعام العشاء، ليكون على يقين من وجود الجميع في البيت خاصة أباه. طرق الباب ورأسه معبأ بلم وكيف ولماذا؟ فتح له أبوه واستقبله بابتسامته المعهودة:

- أهلا صلاح، تفضل.. كنا على وشك تناول العشاء.. جئت في وقتك، ما زالت حماتك تحبك.. رحمها الله.

- دلف ليجد الطعام كالعادة مفروشا على أرضية سجادة الصالة الكالحة الألوان والجميع يلتف حولها، ولأنه محمل بلظى، أيقظته أغصان الكراهية المتدلية بطلعها الأسود، تهور قائلا:

- صالتنا الجميلة ذات الاستخدامات المتعددة.. لا أدري لم تحتفظون بوجودكم في هذا البيت الصغير ولا تنتقلون إلى مكان أكبر وأنتم تمتلكون ما يغنيكم... وهو يضيق بكم رغم تركي فراغا! ألا تشعرون بالحاجة إلى التغيير وتطوير مستواكم المعيشي حتى بعد ترقيتك يا أبي؟! لقد أصبحت رئيسا للقسم في كلية الآداب. أعجب منكم جميعا! لماذا تنحشرون في مكان يشبه علبة الكبريت التي لا تسع حتى ثقابها.

رد مازن غاضبا: خذوا الحكمة من....

- أتستنكر قولي أم أنك تشبعت وتواءمت مع نوم الأرض في بيت لا تتجاوز أمتاره مسافة قدميك؟! أنسيت أيام الدراسة التي كنت تذهب فيها لأصدقائك وتهرب من هنا؟!

يضحك ساخرًا ويكمل:

- لماذا تظلون هكذا... يا صاحب الحكمة؟! وعلى أي ركن في الأرض تنام هذه الأيام؟!

تدخلت لبنى على غير عادتها بعدما رأت بداية تطاير شرر النقاش بينهما:

- وماذا يضيرك أنت؟ وماذا عن دراستك بدلا من تهكمك على حياتنا والبيت الذي جعل منك رجلا؟! يطول الآن لسانك ليؤذينا..!

- منذ متى لك هذا الصوت المسموع؟ الخادمة البلهاء التي تقضي نهارها في المطبخ وتضع العطر فوق عرق جسدها المختلط برائحة البهار!

تحول العشاء إلى معركة غبارها الكلمات الجارحة بقيادة صلاح، يتقاذفها على رقعة ضيقة جدا حتى امتعض عبد اللطيف وسال عرقه الغزير على جبهته، حاول تلافي الشجار وخبّط الأطباق بعصبية لم يشهدها جو العائلة من قبل وصرخ فيهم :

- ما شاء اللّه! لم يعد هناك أي احترام في هذا البيت.. تعشقون المشاكل.. تتنفسون الغل والحقد، من أي رحم أتيتم؟ لا أصدق أنكم أبنائي.. يا أللّه! صائحا : أين أنت يا شهيرة؟ تعالي هنا.

فهي تسمع الشجار من داخل غرفتها وتأبى الخروج، ولكن صراخ زوجها هرولها وتكشفت أنياب غضبها لتعبر عن خيبة أملها، تمسح أنفها كالعادة بمنديل لا يفارق يدها، تحاول إخراس صراخهم :

- ما بكم؟! سعيد نائم، لم كل هذه الضجة؟!

تهور مازن معاتبا :

- أمي ماذا حل بك؟! ألا ترين هذا الواعظ التقي ينتقد بيتنا ويعكر صفو وجودنا معا؟ أفكل ما يهمك سعيد؟!

رد صلاح بصوت مجلجل :

- الآن صرت أعكر صفو تواجدكم معا! وماذا عن وجودك المؤقت يا مازن في كل شيء.. تذهب إلى عملك وتعود لتجد من يخدمك أيها الكبير. لا تسأل عن شيء سوى ذاتك... أنت كبير بعدد سنين خيبتك.. أم أنك تغار مني لأني تزوجت وأنجبت وأنت لم تجد من تُعجب بعقد شخصيتك المذهلة!

انتفض مازن ثائرا وأمسك بتلابيب صلاح، وطالت المشادة الكلامية حتى تصارعا وأبوهما يحاول الفصل بينهما. صادق بقامته القصيرة المتمتع بطبع هادئ العاشق للترابط الأسري، الكاره لهذا العنف والمشاجرات المستمرة، يعاني صدمة ما يراه واقعا في أسرته كمسبحة تنفرط، يصرخ فيهما:

- كفى يا صلاح أرجوك... كفى يا مازن!

ثم اختبأ وراء أمه، ولبنى ركضت إلى غرفة والديها وأقفلت الباب...

- أتضربني وأنا أب الآن؟!

- اخرس! فالأبوة لا تمنحك حق التناسي بأنني أخوك الكبير.

- هكذا إذن! أمي هاتي سعيد.. عليّ أن أغادر. ولم أستأذن؟! أنا لم يعد لي سعة صدر كي أتواجد بينكم.

فناشدته أمه:

- اهدأ... أتعمدت اختلاق هذه المشاجرة كعادتك يا صلاح؟!

- تعمدت! وكالعادة!أ نت لا تتغيرين يا أمي.. هناك دوما صف واحد تتخذينه وبالتأكيد أنا لست فيه أبدا.

في تلك اللحظة خرجت لبنى من الغرفة وهي خائفة:

- أمي! سعيد يصرخ ولا أدري ما به .. متألما.. أم سمع شجاركم؟

صارخا على أمه بتهور:

- أرأيت؟ لا أريد لابني أن يربى على الشجار كما تعودنا نحن.. ثم نادى على سعيد الذي جرى عليه ليتلقاه في حضنه ويوجه الضربة القاضية لشهيرة:

- سأرحل.. يكفيني ما أراه في هذا البيت المخادع ويكفيني إحساسك الزائف بحفيدك!

صاحت والدهشة تعلو ملامحها:

- كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه اللهجة؟ شهور وشهور وأنت تأتي كالضيف ثم تتبعها السنين، كرست خلالها وقتي ووقت لبنى التي تخرجت بمعدل أقل مما توقعنا بسبب رعايتنا له، حتى صادق جعلت منه خادما لابنك كي يشتري كل متطلباته، كلنا تعلقنا به.

- وفي الشهور الأخيرة وقتي كان ملكا له وحده كي لا أثقل على الباقين، وتقول أنني أهملت ابنك! أربع سنوات والكل في رعاية صغيرك إلا أنت! رغم أنها ليست مسئوليتنا، وهنا ليست حضانة يا

صلاح... تنام أنت في حضن امرأتك لتحمل من جديد ونحن نقوم بواجباتك! أين أنت من الأبوة التي لا تعرفها إلا لقبا التصق بك؟!

- هل لأنني أحببت أن أضيف لحياتك شيئا جديدا تقولين هذا؟ ألم تشبعي من المادة التي تعشقينها؟ بماذا قصرت؟ ما الذي يدفعك كي تذليني بكلامك؟ ما منحتِه لابني من دلال هو جزء من تقتيرك عليّ.. أم أنك تناسيت دلالك للجميع عداي! ماذا أفعل لإرضائك؟ منذ قدوم صادق في حياتك مسحت ذكرياتنا معا.. اهتممت به وأهملتني.. أسقطت ما تعانين به مع أبي على شخصي.. فلماذا كل هذه العقد؟

تدخل مازن وقد عاد ليمسك به ويصفعه:

- اخرس أيها الوقح، كيف تجرؤ على محادثة أمنا هكذا؟

عقّب عبد اللطيف على صياحهم المستمر مزمجرا حانقا:

- في وقت راحتي دوما تستعجلون الشجار! ماذا دهاك يا صلاح؟! وأنت يا مازن كفى!

وجهت شهيرة صياحها لزوجها:

- من الواضح أن ابنك نسي من هي أمه ونسي أفعاله المشينة المتكررة.. نسي سرقتي في يوم ما وتسامحت.. نسي دفن فرحة أمه باختفائه وسماعي من جارتنا في المنطقة بزواجه.. نسي حمله في بطني

وتربيته حتى صار شابا.. وأبى لقلبي الفرح، ثم ماذا يفعل؟ يصرخ في وجهي لصراخ سعيد إثر مشاجرتهما.. لا أصدق أننا في بيت!

تهجم صلاح عليها برعد يصم الآذان:

- لم أعد أريد رعايتك.. هذا فعلا ليس ببيت.. إنها خرابة! تقتاتون فيها على لحم بعضكم البعض بما أحمله من أخطاء وكأنكم الملائكة المعصومون.. مهزلة! حين ظننت أن سعيد سينسيك ما فعلته.. ستظلين محتفظة بسجلات أخطائي.. أليس كذلك؟! حتى الذي تأخذينه عنوة مني لا يصفح لي ولا يزيل شيئا.. ما أبشع طمعك!

وأخيرا عبد اللطيف أخذ موقفا عادلا بعض الشيء حين صرخ في وجهه: - لا نريد منك شيئا.. أيها النذل الناكر لكل جميل.. لم أعد أرغب في رؤيتك، كل مرة أدافع عنك في حضورك وفي غيابك، واضح أن تسامحنا معك كثيرا جعلك تتصور أن ما فعلته يمكن محوه من ذاكرتي ببساطة... هيا خذ ابنك واخرج.

خرج صلاح غاضبا وصوته يعلو ويخبت محدثا نفسه:

- لن تتركني الدنيا أعيش دون كوني صاحب موقف حتى وإن كنت سلبيا، ولو ابتلعتني الجدران من كثرة المشي جوارها فلن يفيد! لا يفيد العيش دون صراع نخترعه أو نبتكره وإلا سأُجر إلى الصراع جرا حتميا لكي يكون لهذه الدنيا معنى!

لا تُحلب الأمنيات من غيمٍ عقيم

لم تكن لحظة خروج صلاح من البيت هي النهاية بل البداية لكل ما هو شؤم... تمكن الحزن من شهيرة بعد تعلقها بسعيد، رغم أعصابها الحديدية التي حملتها ما لا تطيق، ورباطة جأشها التي تخفي أوجاعها تحت ساتر من الوجه الصارم وقت الأزمات، وبالتصرف الذي قام به عبد اللطيف حرمها من لحظات السعادة التي قد لا تتكرر، واتسعت الهوة بينهما، لم تتحمل هذا الحرمان أكثر من سنة فأفاقت في يوم على آلام شديدة استدعت وجودها بالمستشفى..

دخل عليها الطبيب فوجدها تتأوه رغم كم المسكنات التي تجرعتها، تطرق بيديها على الجدار من شدة الألم، ثم خرج للقاء لبنى وعبد اللطيف الذي استفسر:

- أرجوك يا دكتور ماذا وجدتم؟

- مع الأسف لديها (حزام ناري) أو نسميه علميا (الهربس النطاقي) وهو التهاب معدٍ يسبب طفحاً جلدياً مؤلماً يلتف حول أحد جانبي الخصر كما في حالة المريضة والإصابة به أمر شائع ولا سيما أنها مريضة سكر وتخطت الخمسين، أقدر الألم الذي تعانيه زوجتك

ولكن الالتهاب المصبغ بالاحمرار لا يتطلب منكم إلا الصبر.

- يا ألله! وهل ستمضي هكذا لفترة طويلة؟!

- يعتمد على قدرتها على التحمل وسرعة تعافيها، ونحاول رفع كفاءة جهازها المناعي، ونظرا لضعف بنيتها فعلى أقل تقدير لا بد من التحسب للعشرة أيام المقبلة لنقول بأننا تجاوزنا مرحلة الخطر. ومع المضادات والدهانات والمسكنات بإذن الله ستتخطى هذه الفترة، لكن يجب الحرص بإبعاد الأطفال - إن كان لديكم - وكذلك ضعيفي المناعة عن الاحتكاك بها، تمالك عبد اللطيف نفسه وحاول عدم إظهار تعابير الضيق التي أصابته:

- ألا نستطيع رؤيتها؟

- ما زال الوقت مبكرا لذلك...

من صدمتهما لرفض الطبيب زيارتها، جلسا خارج الغرفة يذكران الله ويتمتمان بآيات قرآنية وأدعية كي تشفى، ولكن انهيار لبنى بالبكاء بدأ بحضور مازن ومعه صادق فأثاره ذلك الانهيار فأسندت رأسها على كتفه وصوتها يرتعش خوفا:

- حزام ناري يا مازن تخيل! أمي تعاني من الألم وتضرب الحائط من شدة الألم... كما أخبرنا الممرض.. جسدها حساس جدا والمسكنات لا تجدي نفعا!

فشهيرة الجبل الذي مر عليه التصدع والانهيار من قبل، دكّ الألم سكون صبرها وحطمها تحطيما.. يسمعون أنينها ويحرم عليهم رؤيتها... وقفوا جميعا يدا بيد يذرفون دمعا على حالتها وقد أخفى صادق وجهه في حضن أخته واستطرد مازن:

- اهدئي ..اهدئي بإذن الله ستشفى، أمي المسكينة دوما ما تدور بها المصائب وتتحمل...

مسح صادق دموع أخته المتتابعة وقال: -أمي بخير.. أليس كذلك؟

نظرت لمازن بكل أمل ثم أدارت وجهها باتجاه أخيها، حضنت خديه وصوتها لا يزال يرتجف لكنه يحمل نبرة آمرة:

- بإذن الله يا صادق.. بالتأكيد ستكون بخير، هيا بنا لنعود للمنزل.

مر أسبوعان كاملان على وجود شهيرة بالمستشفى، خلالهما تحسنت حالتها وسُمح لهم بزيارتها، إلا صادق، الذي أمرته لبنى بالتوجه (للكافتيريا) لانتظارهم، فأومأ لها برأسه متقبلا طلبها بامتعاض. فقد اشتاق لأمه وهو المرتبط بها عاطفيا وانصاع لأوامرها متوجها إلى هناك. بينما دخلت هي ومازن للغرفة وتلاقت الأعين، كانت أمهما بجسدها الذي هزلت ملامحه ممددة على ذاك السرير الأبيض.. ظلت على نحو الساعة التي تباطأت بحركتها تفتح عينيها بصعوبة من أثر المسكنات تارة وتغلقها تارة، ليبادر مازن وهو يطبطب على

يدها بهدوء ويعضدها ببضع كلمات:

- سلمت يا أمي من كل شر، لن يكون هذا الألم كألم ولادتك لنا، تحملي يا أمي ونحن معك.. أرجوك لا تبكي.. تغلبي على مرضك بالثبات والصبر كما عودتنا.

بصوت واهن يملؤه الألم وهي ملهوفة:

- يا رب... ولكن أين صادق؟

- سأجعل لبنى تعود به إلى المنزل ليدرس وتهتم به. أما أنا وأبي سنبقى جوارك.

- لم تتمكن من الرد عليه... فقد غفت عيناها دون سماع بقية الجملة، فقرروا جميعا المغادرة للمنزل ليعاودوا الزيارة في يوم تالٍ..

في خلال وجوده (بالكافيتريا) اعتبر صادق أنها فرصة ليخبر صلاح بآخر الأخبار فأخرج هاتفه فحادثه منزعجا:

- صلاح، لمَ أغضبت أمنا؟ صحيح أنني الصغير من وجهة نظركم لكني في الحادية عشرة من عمري وهذا يعني أني أستطيع تحمل المسئولية ولأنك أخي الحبيب فأرى أن تزورها هنا في المستشفى... هي هنا منذ أسبوعين ويقولون أنها مريضة بالحزام الناري، ولا أعلم ما هو هذا المرض لكننا لم نتمكن من رؤيتها إلا اليوم... حتى أنا منعوني مجددا وقد تحرقت شوقا إليها!

- لا يوجد في هذا العالم ما يغضبني قدر أن أجد نفسي منبوذا بعيدا.
إن أبي لا يرد على اتصالي ولا حتى إخوتي وكأنني السبب فيما هي فيه ولولا اتصالك الآن لما عرفت كيف يمكن أن أطمئن على أمي، أنت صديقي وأخي، سأعتمد عليك في هذا.

بسذاجة المراهقين وطيبة قلب معهودة من صادق:

- أعتقد أن عليك الانتظار حتى يرد أحدهم وتأتي للزيارة وإلا ...

- ماذا؟ هل سآخذ منهم إذنا للزيارة؟ هذه أمي.. هل سيمنعونني من زيارتها؟

- الطبيب أخبرهم أن أمي لا تتحمل الأخبار السيئة ولم يشرح لي أحدهم ما سبب كل ذلك، فقط طلبوا مني ألا أضايقها... سأنقل لك كل الأخبار... ما رأيك؟

تلجلج صلاح في الرد وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة وقد ثارت نفسه من تصرفاتهم جميعا في نبذه، وقرر استغلال أخيه في نقل كافة الأخبار التي تدور وهو بعيد عن ساحة الحدث:

- هذا أفضل حل! سأنتظر مهاتفتك يوميا لأطمئن، فإذا ما خرجت زرتها.

- لا أملك رصيدا لمهاتفتك كل يوم ومن الأفضل أن أرن رنة واحدة وتعاود طلبي.

قاطعه متوترا:

- لا عليك.. فهمت.. سأطلبك بالتأكيد ولكن لا تخبر أحدا بما يدور بيننا.

أغلق صلاح الهاتف فقد أزعجت نومه الأخبار السيئة، غمر وجهه في وسادته وتراوحت الأفكار المتطرفة في عقله:

- حين قاطعتني يا أمي اضطررت لتسفير ابني سعيد مع سارة إلى لبنان.. قد يبدو هذا الأمر غريبا لكن القسوة تصنع الكثير.. نعم سأصنع لك المفاجآت غير السارة باستمرار وأزيد على قلبك القاسي قشرة أشد قساوة، فالصمت حرفة جديدة أضفتها إلى أرشيف حياتك ولم تكتفي بذلك بل زرعت الصمت في أرض قلوبنا، ليتحول البيت إلى قلعة لا يتحرك فيها سواك، الكل يدور في مكانه! لا يبحث إلا عن رضاك الموهوم. فأنت لم ترضي عن أحد منا، نحن مجرد قطيع يسكن بين جدرانك الأربعة، لا همّ لنا سوى أن نأكل ما نشتهي ونشرب ما تسقينا من هموم حول زمرة عائلتك المفككة! حتى نزاعاتنا لم تبذلي أدنى جهد لحلها، الصدفة وحدها لها دور المصالحة وأنت أشبه بأميرة لم تتوج على مملكة تناسبها، لا أدري من أين أتيت بمجموع

تلك الصفات، وأي أم تلك التي تملك مثل هذه الجينات المتطرفة التي آلت إليك كتركة ثقيلة لا يستوعبها أحد.

مرت الأيام بشق الأنفس، اختفى فيها الهدوء من كل شيء، اضطرب البيت بكل ما فيه، حتى عادت شهيرة بعد تعافيها إلى بيتها لكن مازالت بعض النيران حول بطنها، وبعض الاشتعال في قلبها كلما تذكرت سعيد الذي صار بعيدا مع أمه في لبنان.

قد يبدو للعيان أن سارة قد نجحت في قطع العلاقات بين صلاح وعائلته فقد اختفت عطايا أبيه المادية بسبب تصرفاته الرعناء والتي كانت واحدة من أهم ركائز بيته، لعبة مارسها صلاح مع أبيه أن يمنح أمه بالعلن بعد أن يمنحه أبوه بالخفاء. استهلك صلاح كل ما جناه من أموال بعد قطيعة والدته بالدخول في القمار والمراهنات على البطولات والتي تعلمها من الوسط الرياضي المحيط به أملا بتسديد الأقساط المتكدسة خاصة بعدما أسرف في الإنفاق بعد فوزه بإحدى البطولات، حتى وصل مرحلة اشتدت فيها الأوقات التي مرّ بها بتعسرات مالية، اختفت قطع الأثاث واحدة تلو الأخرى وتكاثرت ديونه وملاحقوه، حتى غيّر موقع بيته على مدار عام كامل أكثر من مرة لتصحو سارة على قراره الفجائي بوجوب سفرها إلى بيت أبيها وأقنعها باللحاق بها قريبا بشرط أن تترك جزءا من

ذهبها لتسديد الديون.

لم تكن تعرف أنه احترف القمار فكل معلوماتها تستقيها من أقواله الكاذبة حول خسارته في التجارة أو احتياجه لعمل مشروع ما، وأحيانا تسديد فشله في مشروع سابق. حتى تنصتت عليه يوما في حوار مع ناصر يخبره فيه عن تفكيره في جدولة الديون التي تراكمت ومحاولات لاستمالته لدفعها عنه، صراخه المفاجئ جعلها في ذهول.. فلم تر زوجها من قبل بوضع الرجاء المستميت!هذه الخسارات التى أودى بها لمصير غير متوقع.

عادت بخُفّي الألم

في مطار رفيق الحريري الدولي ببيروت، في ديسمبر عام ألفين وستة، هبطت الطائرة بسارة وسعيد. وهما أشبه باجتثاث جذور شجرة من أرضها لتزرع في وطنٍ لا يشبههما ولا يعرفانه، وطن يمثلهما في جواز السفر فقط. وإن كانت الحياة في الدوحة تدور بانسيابية فإن خطاهما المتثاقلة إلى خارج المطار تشبه المطرودة من جنة الحياة إلى زيف الأمان.. لم تخبر أحدا لينتظرها فهي تخشى الشماتة. فوجئت بالأمطار تهطل سيولا.. برودة نسيتها منذ طول أمد، تهرول وهي تقبض على يد ابنها، تغطي رأسه وتلبسه المعطف الواقي للمطر.. ثم استوقفت سيارة أجرة:

- طريق جسر الكولا.

- حسنا.. تفضلي يا حاجة.

ترجل السائق وهو يغطي رأسه من المطر مسرعا ليضع لها حقيبة السفر التي دست فيها كل ما استطاعت حمله من جنة المعيشة في الخليج مع ما تبقى من أمل داخل الحقيبة المملوءة بذكرياتها، وأخرى تجرها بخيبة لوضعهما في صندوق السيارة.. تتهكم على

مناداة السائق لها بحجة! هي لم تحج إلا لقلب صلاح.. محور الكون يدور حوله فقط، كسر قلبها بقراره التعسفي ولم يعد لها قبلة توجه لها احتياجاتها.. لا تعلم لماذا ولا كيف دمر كل شيء ونسف هدوء بيتهما... لتعود بخيبتها إلى أهلها... تفيق على قول السائق:

- وصلنا موقف جسر الكولا.. هل أساعدك بالنزول؟

- بالتأكيد.. شكرا لك.. كم حسابك؟

- خمسون دولارا..

قطبت جبينها وصاحت بصوت كانفجار البركان:

- ماذا؟! خمسون دولارا! لست أجنبية لتطلب كل هذا.

- أختي.. لقد أتيت بك من المطار.. والدنيا مطر شديد.. هذه حسبة وحدها..

- لا تجادلني، الخمسون دولارا أدفعها إذا طلبت منك الوصول لصيدا.. أما لمحطة جسر الكولا فلن أدفع سوى عشرين دولارا ولا تجادلني أكثر.

نزلت مسرعة قابضة يد ابنها، غمغم السائق متذمرا بعد تركها وحدها تنزل حقائبها ورفض النزول بحجة الأمطار. ساعدها بعض المارة وهي غارقة في همها.. ماذا ستقول لأهلها حين يرونها وصغيرها؟ بم ستبرر عودتها دون زوجها؟ عادت تضم لصدرها سعيد

خوفا من إغراق المطر له، وركبت سريعا حافلة صغيرة تنادي على السفر لصيدا وصور.

ظل الصمت مخيما على عقلها حتى سأل السائق عن الأجرة فدفعت له متحسرة على دفع عمرها في قبضة شاب رماها في منتصف الطريق ولم تلحق أن تتنعم كثيرا. خمس سنوات من الخير الوفير، تحولت بعدهم حياتها إلى قحط مقيت وقد انتزع ذهبها إلا قليلا منه حوّلته دولارات لتعيش به هناك. هبطت في موقف "البخور" وسريعا بحثت عن سيارة أجرة أخرى لتركبها ويتجول بها في شوارع صيدا على (الكورنيش) البحري، تتأمل البحر بزرقته التي تقترب من السواد كما الذي يملأ قلبها... محاولة استيعاب الطامة التي ستلحق بها حين تخبر أهلها بما آلت إليه أحوالهم، تحولت حياتها من غياب مؤقت إلى مفارقة مع وعد بلقاء قريب إلى غياب مستديم.. هكذا ظل الزمن متسارعا حتى جمعت في جعبة عقلها الأسئلة وبدأت تعيد طرحها من جديد.. أين الأمان في هذا العالم؟ هل الزوج أمان؟ هل تضحيتها بعائلتها القديمة من زوجها الأول وتركها لابنتيها معه.. هو جزء من حلقة الأيام التي تدور؟ هل خمس سنوات كافية للأيام التي لها.. كي تبدأ الآن رحلة الأيام التي عليها؟

قاطع أفكارها السائق الذي توقف عند البناية التي يسكنها أهلها في

منطقة التعمير في عين الحلوة وأنزل الحقائب بعيدا عن المطر عند المدخل فناولته مبلغا في صمت. هبطت وقد وضعت على رأسها شالا لتغطي شعرها المبلل وفي يدها تجر سعيد جرا، وقد أجهد من كثرة التنقلات وسط هذا الجو المتعكر.

صعدت الدرج حتى الدور الثاني، نقرت على الباب ولا تعلم من سيستقبلها.. أأبوها العجوز أم ريم أختها التي لم تتزوج لرفضها فكرة الارتباط وتخوفها من الرجال بصفة عامة؟ تستحضر على لسانها بضع كذبات كي تخفي عليهما سر عودتها المفاجئ..

لأكثر من سنتين فصول كثيرة مرت ما بين شتاء يتحكم بجليد قلب صلاح الذي غابت شمسه عمدا عن ابنه وزوجته دون أن يرسل لهما أي مصاريف اعتمادا على ما باعته من ذهب، تدرجت في ربيع حياتها كعائدة من الخليج بالصرف الجائر حتى وصلت إلى صيف ساخن أعلنت فيه أخيرا عن جم غضبها من انتكاسات علاقتها بزوجها وهروبه المستمر من التفاهم على طريقة محددة لإرسال مصاريفهما.

ثم جاء خريف استدانتها من أبيها بعدما نفذت (تحويشة) العمر؛ كل سنابل الحب التي زرعتها في حقل قلب صلاح حصدتها هشيما،حتى استقرت على رفع قضية للمطالبة بحق النفقة عليها وعلى سعيد ونالت حكما غيابيا وصار زوجها على قائمة المترقبين للوصول.

تعانقني وأنا في لهفة من الغياب

في غرفتها انزوت شهيرة وانجرفت إلى شخصية حزينة، خبتت في قلبها براكين الحب التى تثور حين تدلل سعيد وتغيرت، صارت الأيام تشبه بعضها البعض، تنسى كثيرا إلا فكرة تلقين صلاح درسا لن ينساه لقاء ما فعل بقلبها. دخل عبد اللطيف غرفتهما وقد أسرعت بمداراة دموعها ثم طالعته بتعجب:

- ما بك اليوم؟! ألم تذهب إلى عملك بعد؟

- اليوم الجمعة عزيزتي! وعرجت على مركز البريد لأجد رسالة تخصك، هل تحبين أن أقرأها لك؟

ردت بغضب لافت:

- آه نسيت..لا تقرأ لي شيئا، أعطني إياها واتركني وحدي أرجوك.

- سأذهب لإعداد فنجانيّ قهوة.

انصرف نحو المطبخ ولم تنصت له،فهي مشغولة بالرسالة التي تحمل طابعا من لبنان، وتصدر اسمها على واجهته، بدأت تتمتم بالقراءة وألمُ اعتصر صدرها:

"إلى ذوي القلوب الرحيمة.. إلى جدي وجدتي الحبيبين.. إلى

من يجمعني بهم صلة الدم والقربى.. سهرت كثيرا وحدي أتوجع وأتألم حتى انتفخت عيناي..أختبئ كلما مرت أمي جوار الغرفة لخوفي أن تراني وأنا منتفخ العينين من كثرة البكاء، ظللت أفكر حتى الصباح.. تعبت ووجعني رأسي، بقيت رافضا للطعام لعدة أيام حتى استلفت أمي مالا لتأخذني للطبيب، أتعرفان ماذا قال؟!... ابنك مريض نفسي.. وأنا لا أفهم ماذا يعني مريض نفسي لكني أتذكر أنني كنت أتابع مسلسلا (تلفزيونيا) يتكلم عن شخص وصفوه بأنه مريض نفسي أي مجنون؛ فهل أنا كذلك؟

أمي لا تعمل وتعبت أيضا من كثرة التفكيرفأنا أراها مهمومة، فذهبت لمدرستي بالمدرسة وأنا أبكي، حكيت لها قصتي ورجوتها أن تكتب لكما رسالة على لساني... جدتي الغالية وجدي الغالي، المدرسة لن تقبلني مجددا إلا إن دفعنا الأقساط المتأخرة.. حتى شهادتي لن أستلمها.. وإذا استمرت أمورنا هكذا سأفعل كزميلي بالمدرسة الذي اشتغل (صبي ميكانيكي).الكهرباء في بيتنا مأخوذة خلسة من الجيران بعدما فصلوها عن بيتنا، حين مرضت في الشتاء الماضي أخبر الطبيب أمي بوجوب إزالة اللوز بعملية.. لا مال لتقوم أمي بإدخالي المستشفى.. أمي وعدتني أنها ستفعل المستحيل لإرضائي، وستعلمني حتى أصبح مهندسا لكني أريد أن أكون طيارا..سألت أمي كثيرا كيف

يعرف أبي طعم الأكل والشرب تاركا ابنه بلا شيء، لماذا ملابسي مهترئة وممزقة وقديمة؟ لماذا كل أصدقائي يعيشون بين أبيهم وأمهم، يتنزهون ويلعبون.. وأنا محروم؟ أمعقولٌ ألا يشتاق لابنه؟ لماذا أتى بي للدنيا طالما لا يريدني؟ وإذا كان أبي لايريدني فهل معقول أنتما أيضا لا تريدانني؟! هل تعتقدان أن أمي تكذب عليكما؟ تعالا لرؤيتي..

يا جدتي وجدي أنتما تأكلان ما تحبان، أنتما تعيشان في الجنة وأنا أعيش هنا في النار! ليس لدي مكان أضع فيه ملابسي فأضعها في (كرتونة) أنام على الأرض فيوجعني ظهري وإن جاء الشتاء مِت من البرد وأتألم لأن البطانية المرقعة لا تكفيني.كل يوم يمر وأنا أمزق ورقة (الروزنامة) أعد الأيام ربما تأتين يا جدتي لأخذي من هذا الجحيم... أريد وعدا منك أن أعود... فقط أقنعي أبي كي يعود لي..أيضا.على فكرة، هذه الرسالة سر بيني وبينكما وبين معلمتي."

بصوت: سعيد صلاح عبد اللطيف

بقلم المعلمة: هيا الغانم

سعيد الذي لم يتخطَ الثامنة، يقذف لها بحجر في بركة قلبها الساكن، لتصنع دوائر ألم عجيبة وتأوهات حزينة وتساءلت في نفسها: كيف هم هكذا بلا أموال؟! حاولت شحن حنينها عوضا عما أصابها، لكن

المضمون أوجعها.. قبّلت الخطاب وتخيلته بدموعه المنهمرة مع لثغته التي ميزت صوته الطفولي. صرخت تنادي عبد اللطيف الذي ذعر فأتاها مهرولا من المطبخ، سمع نحيبها وهي تخبره:

-ظن ابنك حين قاطعناه أننا لن نعرف شيئا عن المصائب التي ارتكبها! بداية من حرماني من سعيد، وتكاثر ديونه لحبه في الترف الذي يفوق مستوى قدراته! ولا أمل عندي في تحسن سلوكه الذي بدأه بالسرقة، القمار والاستدانة وما خفي كان أعظم! ألا يعلم ابنك أن بلدنا صغير لدرجة أنه إذا رمى إبرة في الأرض سيسمع الجميع صوت ارتطامها؟ أم ظن أن من حقه أن يمرغ سمعتنا كيف يشاء في وحل غبائه؟ كيف يجرؤ على ترك صغيرنا هناك بلا تأمين مادي.. كيف؟ لا بد من إرسال أموال له.. أرجوك اتصل بسارة على رقم الهاتف الموجود في نهاية الرسالة، واسألها عن بياناتها لنرسل لها دفعة من المال؟ لكن لا تنس أن توضح لها عجزنا عن تدبير الكثير من المال هذه المرة. لا أريد لهذه المدعوة سارة أن تطمع فينا.. ثم.. ثم كيف يحدث هذا وأنا على قيد الحياة؟!

- اهدئي عزيزتي

بدا على وجهها الاصفرار وهي تستكمل حديثها:

- كيف أهدأ وأنا لم أسمع صوت حفيدي إلا حين احتفل بميلاده

الرابع بعد وصوله بأشهر إلى صيدا، أرسل لي صورة يتيمة حين دخل المدرسة والآن تقول لي اهدئي.. ما هذا الاستهتار المشين بمشاعري؟!

احتضنت الخطاب ولم تخف دموعها المنحدرة، علا صراخها وهي تردد اسم سعيد، حتى غابت عن الوعي وسقطت أرضا. حملها زوجها ليضعها في السرير، صادق ولبنى وقفا مندهشين على باب الغرفة يطرقان الباب بعنف بعد سماعهما صراخها ثم صمتها المفاجئ. ثم اقتحما المكان ليجداها وقد تكومت جثة تعتصر يدها اليمنى الخطاب وتشنجت الأخرى على منديلها، وبعد أن خاب مسعاهما ويأسا من إفاقتها طلب زوجها الإسعاف.

على باب غرفة العناية المركزة، أمر الطبيب الجميع بالمغادرة فورا، لكن عبد اللطيف استوقف الطبيب متوسلا:

- أرجوك ماذا أصابها؟ هل ستفيق؟

- سنقوم بالفحوصات حالا، اهدأ من فضلك وانتظر في الاستراحة.

مر الوقت طويلا على عبد اللطيف وأبنائه، ساعات تمر يدخل فيها أطباء ويخرج آخرون، حتى تحولت الغرفة إلى جموع من الأجهزة وفريق من الأطباء ثم ظهر أحدهم أخيرا قائلا:

- أين زوج المريضة؟

- أنا.. ما بها؟

- هناك انسداد في شرايين القلب.. أريد توقيعا منك على ضرورة إجراء عملية.

- عملية ماذا؟

- لا بد من تركيب دعامات للقلب.. ولا وقت لإضاعته من فضلك، خسارة الوقت ليست في صالحها.

- أكيد.. فورا.

توجه عبد اللطيف لإدارة المستشفى لتوقيع الإقرار الطبي أما لبنى احتضنت صادق في لحظة خوف عسير، تنظر له تارة نظرة خوف وأخرى بعطف وأمان وهما ينتظران في الاستراحة لا يكفان عن الدعاء:

- يا رب استر.

عباءة العزلة

قرع هاني الباب ليخرج صلاح من وهم صنعه بأفكاره السابحة في ذكريات ماضيه لواقعٍ يتمنى أن يخفف من وطأته عليه، فهو ما زال منشغلا بِكَمّ الوقت الذي سيجلسه عند هذا الشاب وكيف سيحل مشكلاته. فذكرياته ضيف ثقيل يمارس سطوة السيطرة على خلوته!

تقدم هاني داخل الغرفة محاولا التودد لصلاح :

- هل أنت مرتاح؟هل يعجبك ما أطبخ؟ لماذ تظل حبيس الجدران؟ مر أكثر من أسبوع وأنت على هذه الحال! أنا لا أقصد التدخل ولكن أحاول أن أمد يدي للمساعدة.

بتحفظ شديد:

- أعلم أنني أطلت بقائي عندك، ودينك في رقبتي حتى يوم الدين، سأحاول إيجاد عمل قريب لا تقلق...

- لست قلقا منك، بل عليك، حاول أن تفضفض وتخرج من عباءة العزلة.. كثرة الصمت تولد الانفجار!

نطق جملته ثم أدار ظهره وخرج من الغرفة بينما أقفل صلاح سريعا

الباب وانكمش على نفسه وأسراره...

فبمرور الوقت صار لزاما عليه حفظ ماء وجهه مع كفيله فاقترح عليه أن يكون طباخه لقاء إيجار الغرفة. اعترض هاني في البداية ولكن حين مر الأسبوع الثاني شعر أنه اقتراح جيد بالنسبة لرجلٍ غامض متحفظ لا يريد الانفكاك والحكي عن قصة حياته. كل هواجسه ألا تكون استضافته له أمرًا مريبًا! لذلك يفضل حبس نفسه في الأوقات التي يعود فيها للشقة. شك في كونه شاذا!هذا الشعور ملأه حد التخمة، لكن توجسه خاب حين تقارب له صاحبه تدريجيا على مدار الشهور التالية. فهو أربعيني أنيق في ملبسه، لا يشبه أيا من رماديات الشقة التي يقطنها. سُمرته وفخامة عضلاته لا يتناسبان مع شراهة تدخينه. ففي كل ركن يلحظ تركه لمنفضة السجائر مليئة بالأعقاب المتناثر حولها الكثير من الرماد، وعلى النقيض يداوم على ممارسة الرياضة في النادي الرياضي القريب من منزله. لديه ذكاء اجتماعي يمكنه من دخول قلب من يتعامل معه سريعا! جدوله لا يخلو من العمل، ففي الصباح يعمل مندوبا للمبيعات لدى مجموعة عقارية كبيرة، لها فروع متعددة ولا يعتمد في لقمة عيشه على راتبه بل يكسب الزبائن بطريقته الناعمة ومفرداته المنمقة وشبكة علاقاته التي فاقت حد التوقع .فقد مكنته من بيع وشراء

قطع الأراضي في مصر عن بعد من خلال موقع له على "الإنترنت" عمل خلاله تحت اسم شركة بالباطن، أما الوقت الآخر من يومه فهو يشتري ملابس بالجملة ويعاود بيعها بالقطعة، يسهر ساعتين آخر الليل أمام (التلفزيون) يتناول خلالهما العشاء ويشرب شايه الثقيل. هكذا على مدى العشرين عاما التي قضاها في الدوحة من لحظة وطء قدمه أرضها وهو ينحت في الصخر..

لم يكترث صلاح بالخروج من البيت؛ في البداية لشعوره بالراحة والانفراد بنفسه، ولم يهتم حين تحولت الغرفة في شقة هاني إلى سجن آخر بإرادته معللا لنفسه أن رفيقه مزدحم بمشاريعه التى لم تترك مجالا للتعارف عن قرب. كان دائم التخطيط والترتيب لحياته في صمت، باحثا عن أهله الذين هجروا المكان... منتظرا من (مدام فاطمة) أية أخبار لكن دائما ما تبرر بأن صادق لم يمر.

استغرق الأمر شهرين قبل التقاء هاني وصلاح صدفة على أريكة الصالة التي تقابل (التلفاز) ليشاهدا سويا مسلسلا (دراميا) وعلى غير توقع تنبه هاني لوجه صلاح الباكي:

- ما بك يا صديقي؟

- تذكرت أبي.. أفتقده كثيرا.

- هل هو ميت؟؟

- لا أعلم أين هو الآن... ولا شيئا عنه... ذهبت لشقته فلم أجده؟ فتشت عنه كثيرا وحتى الجامعة ذهبت إليها وأخبروني أنه تقاعد منها.. ولا أدري إن سافر مع أخوتي أم لا!

- ولماذا لم تخبرني كي أساعدك؟ فمعارفي هنا كثيرون.

- لم أرغب بإضافة حمل إلى كاهلك، وأنت الذي تنتف الزمن نتفا كي لا تشعر به. ألا تلتفت لتفاصيل حياتك؟ عمل ورياضة وتجارة.. لا علاقات نسائية.. لا زوجة ولا أولاد!

- اسمع يا صديقي! هذه الحياة علمتني أن أستغل زمن الشباب لأتمكن من عيش الرخاء في الكبر، أما الزوجة والأولاد فلا أقوى وأنا مطلوب للثأر، فلن أضيف هما على همي ووجعا على وجعي، أو أترك زوجة لي رهينة القلق والخوف وانتظار الموت. ثم لا تقلق علي! سأفرغ لك وقتا كي نبحث سويا عن أبيك وإخوتك...

حكايا صلاح طالت بينهما، والبحث عن أهله توقف بعد يأسه من وجودهم طيلة الشهور التي مرت، ولم يعد يتحمل كتمان ما فيه بعد الخسران العظيم لأبيه وإخوته. تحمل هاني انطواءه وتقلباته، كرّه وفرّه أيضا مما شكّل صعوبة في مساعدته، لكن من منظور صلاح ارتأى صبر رفيقه وجلده يتخطى مرحلة ما يسمى بالشهامة. فقد وجد فيه صفاتا يفتقدها في إخوته ثم تفككت عقده عندما أخبره

عن حياته. وأن ما مر به علمه الخرس المؤقت، ولأن هاني محنك في الفكاهة وإدارة الحوار، لم يكن ليسأل صلاح أبدا عما يود قوله تاركا له براحا في الحديث عما يشاء حتى لو أن كلماته تشبه الكلمات المتقاطعة، فقد برع في حلها!

مغمورٌ في يد محترفة

ليلة جديدة تجمعهما وقد تصدرت الأسئلة طاولة الحكايا عن سر الجميلات في حياته.. فيرد صلاح المزحة:

- هذه الحكايا لا تنسجم إلا مع كوبين من الشاي الثقيل.

- حالا.. سأقوم باللازم.

لملم صلاح خيوط قصته ليبدأ متنهدا:

- حين أهملت الجامعة وركزت كل جهودي على ممارسة كمال الأجسام، مع عملي في تجارة قطع الغيار؛ لأسد احتياجات بيتي مع وجود طفل جديد في حياتي، لم يُهيأ لي الوقت مطلقا لأشرح لسارة معنى الجسد.

- سارة؟

- نعم إنها زوجتي.. فأنا لست كما تراني الآن. كان لي جسدٌ مفتولٌ يشبهك، يدر ربحا كبيرا من البطولات التي دخلتها على المستوى المحلي لقطر.

- كنت بطلا!

- طبعا.. مثّلتُ قطر في البطولات الدولية.. وكانت لديّ دوما رغبة

ملحة لأصبح كأثرياء الدوحة؛ فتعلمت المراهنة التي تتم خلف الكواليس طوال الوقت، مما زاد رغبتي باقتناء المال فجازفت لمرة واحدة لصالحي من خلال صديق لي وخسرت. دفعني إحساس المراهنة تدريجيا نحو المقامرة، فخسرت مرة تلو أخرى حتى بعت كل ما لدي. وتحولت النجاحات في سنوات معدودة إلى سراب، إفلاس وملاحقات.. ولم تدرك سارة سبب قراري المفاجئ بإجبارها على العودة لأهلها في لبنان.إنه الهروب العظيم من كل شيء، حتى من أهلي! لا أنكر أن سوء سمعتي أطاح بعرش بيتنا، لكن أكثر ما أقلق زوجتي فكرة غيابي عنهما.. ذاك الغياب الذي أتاح لي فرصة السفر ثم تعرفت إلى نسمة

- نسمة! من تكون؟ ولماذا علاقاتك سريعة هكذا؟!

- بالعكس عشت مع سارة بدايات شبابي وجاءتني بسعيد، وحاولت الحمل مرة أخرى لكنها أُجهضت.. دوما عندها مطالبات بالمزيد، فلم أشعر أبدا أنها أشبعت رغباتها بالمال ولا حتى بالحب.. كنت أبحث عن شيء ما ينقصني، ولا أعلم ما هو! ولكن نسمة سحرتني بكل ما في الكلمة من معنى. لقد أعدت لذهني ذكريات كادت تتبخر. أسرتنى بملامحها الخمرية، وفتنتني بفساتينها عارية الصدر والكتفين صيف شتاء، وكأن الفصول عندها توقفت على عتبة الفتنة.

نظراتها الساحرة تكفي لقتل كثير من الرجال في وقت واحد، فكيف أنسى ذلك اليوم الذهبي في مطعم بيت ورد بالمهندسين المزين بالزهور في كل أركانه والذي اختاره زوجها عمرو السرجاني صاحب النادي الرياضي "السيلفر جيم" خصيصا للاحتفال بي بعد توقيع عقد العمل فيما بيننا. كان بحاجة إلى رجل ذكي قوي البنية، وحين جلست أمامها بعد مجيء العشاء بما لذ وطاب من المأكولات اللبنانية التي أعشقها.. نسفت ما تبقى من عقلي.

عكست صفحة النيل إضاءات ما حوله لتزيد من جمال وجهها الخمري، وشهرتي كلاعب تعد بوابة العبور بالنسبة لي للانتهاء من الديون وفرصتي سنحت حينما وقعت العقد وقبضت مبلغا مقدما حسب الاتفاق لأصبح مديرا لـ (جيم)، تهت عن الدنيا ورحت أرمق حركاتها الجسدية، وطلقات ضحكاتها المثيرة. لم أخجل رغم كونها زوجة شريكي لاحقا، فلم يكن عمرو من الرجال الذين تستثيرهم الغيرة على زوجاتهم، فالتقطت بمهارة قصتهما الحزينة. لا أستطيع الجزم حتى اليوم هل كانت شباكها الماهرة في الاصطياد وكلماتها التي تقطر كعسل النحل برضا منه أم لا؟! وهل تذوقت العسل وحده أم دست فيه السم الذي أسقتني إياه مَرارا فيما بعد، وألم الوخز الذي لم تعالج ندوبه حتى الآن. بعد العشاء معا أردت ترك انطباعٍ قويٍّ في

ذهن عمرو من خلال قصتي مع البطولات لأبادره بالقول:

- ذكرتني هذه الجلسة بأيامي الجميلة.. المليئة بالتحدي.

ولم يكن ليستمع له لولا أن لديه خطة مستقبلية لعمل مركز لبناء عضلات الأبطال فاستفسر منه بجمل مقتضبة:

- احك لي فأنا أسمعك.

- كان مدرس الألعاب من أهم الذين شجعوني على هذه اللعبة فقرأت كثيرا عن كمال الأجسام للمحترفين في أمريكا، وتطلب الأمر مجهودا كبيرا للحصول على جسم قوي وعضلات بارزة كما أن التمرينات والنظام الصحي هما الطريقتان الأكثر أماناً وصحة، وطبعا انتشارها التنافسي وجوائزها كانا كفيلين بإغرائي، فقررت الاستعانة بمن يدربني بحرفية وأنا بالجامعة مقابل نسبة.. لأربح بعدها الكثير من الدولارات.

- وكيف كان برنامجك؟

- كان واحدا من جداول كمال الأجسام الأكثر شهرة والذي تدربت عليه ونظام الخمسة أيام.. بالتأكيد لديك فكرة.

- أتفهم ذلك ولكن هل كان وقتك يسمح بكل ذلك؟

- ماذا تقصد ؟

- هل كنت متفرغا؟

- بالطبع لا! ابتدأت في تجارة بسيطة عن طريق بيع وشراء قطع الغيار وإعادة السيارات القديمة إلى الحياة وهذا يثير بداخلي الكثيرمن الانتشاء.

رمقتني نسمة وضحكت قائلة:

- وكيف عثرت على (الجيم) الذي يملكه زوجي؟

- في نهاية عام ألفين وسبعة راسلت الكثيرمن الشركات بعد انقطاعي لفترة عن المسابقات والبطولات، وقعت عيني على إعلان في مجلة رياضية تخص النادي الرياضي في القاهرة لأجد عمرو... مشروعه و...!

- وماذا؟

كنت طامحا أن أقول وأنت... لكني كتمتها في صدري... واستطردت:

- دونت البريد الإلكتروني وراسلت النادي عبر بريد صاحبه.. زوجك، ووجدت الرد بعد ساعات بالإيجاب والترحيب. اتفقنا مبدئيا على كل شيء يخص العمل الجديد وكان من أهم شروطي أن يقوم بإحضاري على نفقته... فقط أتكفل بقيمة (الفيزا)... أما التذكرة فعلى حساب الشركة.

تنهد صلاح مجددا ونظر نحو هاني الفاغر فاهه:

- لم أتعجب كثيرا حين تطورت علاقتي سريعا بنسمة. فهي كتلة

فتنة تتحرك على الأرض، فرس لم يمتطها أحد بعد.. حتى فارسها المزعوم، راهنت على إيقاع قلبها، أتعلل بكل شيء وأي شيء كي أراها بعيدا عن أعين زوجها وغالبا ما تكون في (كافيه سيلانترو) الواقع في ميدان المساحة. تبث خلال مقابلاتنا معاناتها مع زوجها وأنا أبث لها حناني ومشاعري التي وجدت منها استجابة تلقائية لجسد محروم من رفاهية الحب.

أما سارة وسعيد فتابعت أمورهما في البداية لكن سرعان ما نسيتهما ووقعت تحت تأثير ضغوطات العمل ليل نهار. وحكايات نسمة وشكواها الدائمة من تقصير زوجها. فلم توفر فرصة مناسبة في ذهني لأخبرها عنهما أبدا أو ربما نسفت وجودهما من حياتي للأبد... فهدفي الأوحد أن أستجمع كل قواي للحصول على شراكة مع عمرو.

تثاءب هاني وتمدد قائلا بابتسامة ذكية:

- قصتك مشوقة يا صلاح، لكن عليّ النوم الآن، سنعد لها جلسة أخرى.

تنهد صلاح وابتسم:

- معك حق؛ تأخر الوقت.. وأنا أيضا سألحق بك... أحلام سعيدة.

وهكذا مضت الأيام.. كلما تسنى لهما اختلاس الوقت للحكايا، يقوم

هاني بإعداد العشاء وبعدها الشاي والمكسرات ويجلس جوار صلاح الذي لم ينتظر إشارة البدء، بل أغمض عينيه وبدأ:

- في لحظة من لحظات لقائنا.. في الكافيه المفضل لديها، أتانا النادل بفنجانين من القهوة التي أعشقها، أرتشف من دلالها الذي ينثرني كدخان سيجارتها التي تنفثها في وجهي.

فقد تعودت منها اللباس المستفز لمشاعري ورغباتي، فهذه المرة فستانها الأسود المبرقش بالأبيض أبرز جمال جسدها، فرس حقيقية تستدعي كل الحواس النائمة وتنظر في عينيّ كسهامٍ راشقة حتى مالت بجسدها نحوي قائلة:

- صلاح، ما رأيك أن نغير فكرة القهوة لنشرب الحب في (كازينو بالهرم الليلة؟

لم أتعجب من سؤالها لكني حاولت استمالتها حيث أريد:

- نشرب الحب! ماذا تقصدين؟!

- يعني أن نحتسي كأسين من الخمر.

- لا لا لا لا! أريد المحافظة على جسدي لأنه رأس مالي. أنسيت مشروع (الجيم) المستقبلي؟ لا بد أن أظل محافظا على صحتي وإلا..

قاطعتني:

- مرة واحدة لا تعني شيئا!

- إذا أردتِ أن نشرب الحب، فالأولى أن تشربيه معي في شقتي.

- أأعتبر ذلك جرأة؟

- وعلام الخوف؟! اعتبريه نداء صريحا وحقيقيا لغرائزي المفتونة بك، ولنظراتك المتوارية خلف قناع الرغبة..

فقهقهت قائلة:

- إن كان الأمر كذلك فدعني ألبي النداء... هيا بنا.

في هذا اليوم ركبنا (البي ام دبليو سبورت) التي استأجرتها من الدقي، فقط لأرسم لها صورة المارد لجنيته المنتظرة. مرقنا ببطء في شوارع القاهرة المزدحمة ولم تبهرنا الأضواء قدر لمعان الحب الهامس من شفتيها المكتظتين بالحب.

وصلنا إلى شارع إيران بالدقي حيث البعد عن ضجيج الشارع الرئيس، ونزلت بالسيارة إلى مرآب البرج الجديد ليستقبلني حرس الأمن بالترحاب، فهم معتادون إغداقي عليهم.. لأبني جسرا من القوة بيني وبين المحيطين وأنا الغريب عن هذا البلد.

ركبنا المصعد ووضعت إصبعي على الدور السابع وانتهزتُ فرصة لأضم جسدها إلى صدري.. وقبلتها بعنف:

- مَسْني السحرُ من بريق عينيكِ ليأكلني الشوق لخمر شفتيكِ لأنصهر حالماً بمرمر جسدك بين يدي

أبعدتني بدلال:

- ألا تنتظر؟!

- ولم الانتظار؟؟هنا المقدمة لكل شيء، هذا المصعد لم يخلق إلا للاختلاء..

ابتسمت حتى تلألأت سماء أسنانها البيضاء وقبل ردها وصل المصعد، ففتحت لها الباب وأومأت:

- تفضلي.

أدرت المفتاح في باب الشقة، فدخلت منبهرة من أناقة المكان وشدة ترتيبه وذوقي الرفيع في انتقاء الأثاث (الكلاسيكي)، فعاجلتها:

- درست (الديكور) الداخلي بعدما تركت الجامعة..

- أتركت الجامعة؟

ضاحكا: - طبعا.. وأخذت شهادة (بكالوريوس) المحاسبة، فأنا لا أضيع الوقت أبدا، ولكل دقيقة ثمنها.. فأنا حقا أحب أن أرى الدهشة في عينيك الجميلتين.

ثم جذبتها إلى غرفة النوم جذبا خاطفا.. فأنا لم أخبرها أن الشقة بالإيجار.. وأنني مؤقت كتلك الفرصة.

أوصدت باب الغرفة، ولا أدري لماذا؟! لكنني اعتدت على هذه الحركة وأشعلت المكيف ثم (اللاب توب).. وبدأت في عرض فيلم إباحي

ليستفز مشاعرها حد النداء. راقبتها واستغربت عدم استهجانها أو حتى الاعتراض. وتلك هي بدايات الاختلاف عن سارة، لأعلم بعد ذلك أن تلك الأفلام هي تسليتها الوحيدة كلما عانى سرير عشقها من غياب عمرو! فناديتها: - نسمة.. نسمة..

أفاقت من سرحانها بتفاصيل الفيلم:

- هل تودين شرب قهوة أم نرتشف سويا من الحب على قدر ما نريد؟

- لا لا... أريد المنفضة، وأخرجت علبة السجائر من حقيبتها وأشعلت واحدة وصارت تنفث دخانها في وجهي..

ابتسمت لها:

- ستجدينها على (الكومون) جوارك.

غبت في الحمام بضع دقائق لأعود لها بالـ (روب).. اقتربت منها ومن أنفاسها.. قبّلت يديها، عانقتها وصرت أخلع عنها ملابسها قطعة بقطعة، حتى تحولت الغرفة إلى كومة من أنفاس ساخنة متصاعدة متسارعة ومتلاحقة ونبضات مقيدة بسجلات العابثين بالعشق وجسدين التحما بقوة الرغبة تحت مسمى الحب بحثا عن لحظة نشوى.. اعتدل صلاح في جلسته أمام هاني وأطلق زفرة مختنقة منذ سنين..

- إنها أجمل امرأة تعرف كيف تذيقك طعم الحب.

بسمةٌ صفراء للقدر

لم أنس أن هذا العالم الذي توحش وقت إفلاسي عشته قبل وصولي القاهرة مما اضطرني من وقت لآخر لركوب الحافلة الحكومية حيث الأجساد تتزاحم وتتلاحم دون إدراك. فعدد الكراسي لا يتحمل كل هذا القدر من أكوام اللحم المعتصرة والمطحونة ما بين لقمة العيش وبين محاولة الحفاظ على مواعيد العمل حتى المحطات التي تتوقف عندها الحافلات لم تكن مهيأة للنزول أوالصعود. فعليك يا صديقي دوما أن تتنبأ بما يصادفك من المشاكل أو تستعد لكل طارئ.

ذات نهار وأنا أعد نفسي ذا حظ عظيم حين صعدت للحافلة وتمكنت من الجلوس على كرسي خالٍ، متوجها نحو الزمالك لأقابل نسمة. فقد تعودت المواصلات كما اعتدت المشهد الذي أطاح بي فترة من الزمن إلى الطبقة الأدنى على اعتبار أني كنت من الطبقة المتوسطة ذات يوم. لم أتمكن من استئجار السيارة هذه المرة وقررت الحفاظ على كل مدخول لي ليواكب الظروف الصعبة. أحسست بتحول في (استراتيجيتي) للصرف الباذخ وخبرتي التي اكتسبتها في العام الماضي من سوء أحوالي مكنتني من فهم قيمة المال، فالخسارة مؤلمة

يا هاني! لا توجع جيبك فقط ولكنها توجعك في صميم روحك، حين لا تقدر على شراء شيء أو تشعر بأنك مغلول اليدين.. لا تستطيع استمطار الرزق ولا خطفه، فهو قدر مرسوم لك حتى وإن لم تشأ أو تقتنع.. لا شيء يتغير إلا عند التسليم والاستسلام.. عام كامل من السعي والحفاظ على كل شيء..

هبطت وقتها في محطة رمسيس مترجلا باحثا عن مواصلة أخرى للزمالك رغم خوفي من اتساخ بدلتي السوداء، ولقد صممت على لقاء معشوقتي في برج الجزيرة، فامرأة مثلها لا يليق بها إلا تلك الأماكن. صعدت إلى السطح لأرى كيف تكون الحياة من الأعلى، كيف تتصاغر الأشياء حين تتغير بؤرة الرؤية، ورغم الضباب الكثيف الذي يلف وجه القاهرة إلا أنك تستشعر صفحة النيل التي تشبه الأجزاء المحررة من طغيان الأرض.

وقتها توقفت مع نفسي لأتنفس ببطء وقد غمرتني النسائم الباردة لأتمتم بصوت خفيت:

- لا أحمل في نفسي إلا الشعور بالجوع للاستزادة، جوع المال وحده لا يكفي.. تصيبني الحيرة في احتياجي المستمر لإشباع كل شيء.. إلا روحي بقيت خاوية. فقد اعتزلت كل ما له صلة بالمواعظ والحكم والخطب، الصلاة والصيام، أرى أني بعيد عن هذا كله ويكفيني ما

أديته من طاعات بزهو وتفاخر إلى حين دخولي الجامعة.

ارتأيت أن إساءة الكون لي منحة تحقق لي الاندفاع، فأنا لا أمتلك صبر أمي وتمهلها. أمي ذات التفاصيل المنحوتة في وجهها كتلك الشجرة العتيدة التي تقف في منتصف معالم دار الأوبرا المصرية، وأنا أراها من الأعلى يحيطها مساحات الخضار المتدرجة حتى حافة النيل لتعيد صياغة لوحة الدنيا في عيني.. دققت في مبنى فندق (سوفوتيل) القاهرة الذي يقف على حافة المشهد وتمنيت لو كنت أملك كل تلك الأراضي.

جلت بنظري إلى الناحية التى تليها لأرى مركبين كبيرين عرفت لاحقا أنهما مطعمين عائمين أما الضفة الأخرى فيطل مبنى الإذاعة والتلفزيون، تأكدت من معلوماتي حين سألت شابا يضع يده على كتف حبيبته فأومأ بالإيجاب لأبتسم هازا رأسي:

- كل البرامج التي شاهدتها في (التلفزيون) تصدر من هنا! يا ألله الآن أعتبر نفسي محظوظا، لم أتخيل يوما أني سأتمكن من رؤيته.

استطعت استقطاب الشاب حين عرف مني أني لبناني وصار يدلني على بعض المعالم:

- هذا كوبري قصر النيل، وهو يوصلك للناحية الأخرى من الزمالك.

أما عندما سألته عن اسم المناطق على الناحية الأخرى فوجئت به

يطلق ضحكة كبيرة:

- لا أستطيع الجزم، فأنا هنا مع خطيبتي جئنا من الريف لنحتفل ولا أحفظ كل الأسماء، لكني أحاول أن أرحب بك بطريقتي.

- مبروك يا عريس، ساعدني إذن في التقاط صورة.

- صور كثيرة لا تقلق، أعطني هاتفك.

ترك الشاب خطيبته وراح يصورني من كل الاتجاهات معتبرا نفسه ممثلا لبلده ليتحول معي فجأة إلى مرشد سياحي دون معلومات، تحاورنا وضحكنا حتى تنبهت لمرور ساعة كاملة فاستعجلت بالاستئذان متمنيا لهما حياة سعيدة وتنحيت بعيدا واضعا يدي على السور الحديدي المطوق للحافة لألتقط صورة أخرى "سيلفي" ثم قررت النزول للمطعم فاصطدمت بشابة تشبه سارة إلى حد بعيد! تسمرت قدماي متخيلا أنها زوجتي! انتفض قلبي وارتعب حين تخيلتها تعاتبني صارخة:

- كم مضت الشهور دون كلمة بيننا! لا أعرف هل أستطيع مسامحتك على تغافلك دفع فواتير العام الفائت التي لم ترسل منها ليرة واحدة! ماذا منحت طفلنا الصغير في الغربة؟! يقتلني صمتك وغيابك...

أفقت على صوت تذمر المرأة وغمغمتها لتحديقي فيها، فهبطت بسرعة وقد صدمتني بهذا التشابه لأتساءل ما هذه الصدفة! تنهدت بقوة

وتخيلت أنها أمامي من جديد، فأجلستها على كرسي المواجهة الذي دوما ما أجلس عليه أمي حين أحاورها في نفسي:

- سارة، أحاول أن أجد نفسي بعد أن ضيعتني رغباتك؟ تحلمين بالمال الساقط هطولا كما المطر ولا يهمك من أين؟ صدمتني حين تيقنت أنك تقاربين أمي في عشقها المجنون للمال وأحمد الله أنكما بين أهليكما، أما أنا ففي غياهب الوجد أبحث عما لم أجده في ليلى جارتي وفيك وفي أمي...!

فاتت الدقائق وأنا سارح لأتفاجأ بنسمة ورائحة عطرها الفواح تسبقها قبل أن تجلس أمامي بأناقتها المعهودة ..فكنست كل أفكاري عن سارة واستحضرت كل ما بداخلي عن الحب.. تمنيت لو استطعت أن أقول لها:

- كل شيء عارٍ عن الحقيقة إلا أنت يا نسمة.. قطعة من هذه الأرض الخالدة.. بشرتك الخمرية التي تتقد بريقا لم أشهده من قبل، أفكاري تتصارع، كيف بإمكاني امتلاك ما ليس بحوزتي، لم أعتد الخسارة إلا في القمار الذي أذاقني مرارة الإفلاس المادي.. أما المرأة فأنا لها!

قاطع أفكاري تكرارها قول:

- صباح الخير.. أهلا.. صباح الخير، تأخرت أليس كذلك؟!

عدت إلى نفسي واستجمعت أفكاري لأرتبها، لكنها تبعثرت من جديد أمام سحرها ودلالها، فتمتمت بصوت متردد:

- لا.. لا أعتبره تأخيرا لكنها فرصة منحت لي لأستمتع بالجو والمناظر الخلابة في الأعلى على الرغم من كوني متحرقا لوصولك.

- ها أنا قد أتيت وأريد قهوة.. فهلا طلبنا.

أخبرت النادل برغبتنا مبدئيا بفنجانين قبل إحضار الإفطار:

- أريدها مغلية لو سمحت.

- وأنا سكر "زيادة".

- تحت أمرك يا أفندم.

سرحت بصمت في عينيها، كنت أدقق النظر إليها ما بين الرشفة والرشفة.. أنهيت صمتي بديباجة:

- إن أكبر الأضرار تلك التي تُدعى الصيت، فكل من رآني توهم بكنز يكمن في ثنايا جعبتي وكأن تلك البطولات لم تأخذ مني قدر ما أعطت، وحين وصلت حافة الانهيار بسبب اقترابي من الإفلاس والديون التي لاحقتني، لم تكن هناك فكرة تشغل عقلي سوى الهروب مهما بلغت النتائج والخسائر. هناك أبواب أخرى يجوز لي طرقها وأنا لا أخشى الإقدام حتى وإن حالفني الرفض، والحمد لله بعد مرور هذا العام من العمل المتفاني أستطيع أن أفخر بإعادة بناء

أحوالي المادية من جديد.. - أتعلم أنني طلبت الطلاق من عمرو؟
صدمتني بتعجلها الأمر، لكن لم تهزني الفكرة:
- لم تخبريني من قبل! هل أنا السبب؟!
- لا.. لا، أحواله المادية لم تعد تروق لي وأنا لا أتحمل كابوس الوصول لمرحلة تقترب من الإفلاس وقفزتَ خلال العام الحالي قفزة سريعة نحو الأرباح.. أليس كذلك؟
- أعلم هذا ولكن أحببت إخبارك كيف كان موقفي قبل لقائك وكيف أنا الآن ألمع كقطعة ماس في إصبعك وبفضلك، وهل اتفقتما على التفاصيل؟
- أجل ولكن عندي رغبة في شراء حصة عمرو من (الجيم) فأنا أريدها لنا وحدنا، فما رأيك؟
- هل تنازلت له عن شيء؟
- اعتبر أن ما فعلناه مقايضة بأن يكتب لي حصة من أسهم (الجيم) وآخذ أحمد ليعيش معي.. فأنا لم أصدق أن حلمي قد يتحقق بك وعليك أن تثق بأني لم أحب أحدا مثلما أحببتك، لذا اغتنم هذه الفرصة واشتر بقية الأسهم وبسرعة.
تأملتها بتأنٍ وهي تدنو مني وقد تدلى عقدها اللؤلؤي من صدرها العاري لأرد بحزم وقوة:

- سآخذ قرضا من (البنك) يمكنني من شراء الأسهم وأبدأ فورًا بوضع خطة لعمل فروع (للجيم) في أنحاء الجمهورية، أما أنت وأحمد ستكونان أسرتي عوضا عن تلك الأسرة التي لا أعلم عنها شيئا.

ردت مندهشة:

- لم أفهم.. هل لك أسرة أخرى؟!

- أجل أهلي هم أسرتي الكبرى في الدوحة.

رأيت الوجوم والضيق خيما على ملامحها حتى اقترب انفجار بركان غضبها وكأنها لم تصدقني فعاجلتها قائلا:

- أنت أسرتي يا حبيبتي ولا أحد بيننا سوى الحب.

- وأحمد؟

- ابنك هو ابني سأرعاه بالتأكيد.

غادرنا المكان وقد تأبطت ذراعي فرحة بالانتصار الموعود، وأخبرتني بتفاصيل دقيقة تخص أوضاع زوجها، بحيث أتمكن من كل شيء بسلاسة في النهاية.

مضت الأمور سريعا بعد طلاقها فشركة عمرو التي تنازل لي عن أسهمها مقابل مبلغ محترم من المال اقترضته من البنك مهد لاقتراني بها بعد شهور عدتها .

لا شيء يُبطل ثاء الثأر

لا يمكن لاثنين جمعتهما الغربة إلا أن يتقاسما الحديث عن أهوال الدنيا والمصائب التي حلت عليهما. فقد اقترح صلاح بعد عدة جلسات أن يخبره بتكملة قصته، فقد شعر بالملل لتحدثه طوال الوقت عن نفسه فقط، تعلل هاني كثيرا بأنه يحب الإنصات أكثر لكن تحت وطأة إصرار صلاح بدأ حواره:

ولدت في سوهاج، في صعيد مصر حيث العادات والتقاليد عندنا لا تسمح بالحب كما تصوره المسلسلات. واقعك لا حرية لك في اختياره مهما كانت وجهة نظرك مختلفة، لذا ظل حبي لابنة عمي حبيس قلبي ولا أحد يعلم بذلك سوى أخي الكبير وكثيرا ما منيت نفسي بلحظة الزفاف في كنيسة بلدتنا، لكن "نظلة" ابنة عمي صدمتني حين وافقت على الزواج من زميلها في الجامعة ورفضتني، حتى خرجت من منزلهم غاضبا متوترا... وتساءلت كثيرا ما الذي جعل عمي يوافق على هذا العريس رغم أنه من خارج العائلة، ثم وجدتها لنفسي ببساطة.. هو من أعيان البلد وفرصة حقيقية لعمي ليترشح في الانتخابات القادمة بكثير من دعمهم حتى ينالوا المراد. قامت

الدنيا ولم تقعد ودارت في رأسي كل الأفكار.. هل أستطيع المحاربة من أجل حبي لإبنة عمي أم أتنازل عنها بعد رفضهم لي؟ لم يكن هناك وقت فقد استعجلوا إقامة الأفراح، كما تعجلوا ذبح قلبي.. واعترفت لأبي أني حاولت طلبها للزواج ورفضني عمي!

فوجئت ليلة عرسها بطرق شديد على باب شقتي حتى كادوا يخلعونه، أنهى تدفق أفكاري دخول أبي وأخي ووجهاهما مكتسيان بالحزن، ليخبراني عن سقوط العريس مضرجا بالدماء أثناء الفرح بطلق ناري أصابه في مقتل.. مسلسل يومي تراه في بلدتنا..

إن خوف أبي جعل إخوتي يقومون بتهريبي من بلدتنا، فوالدي متيقن أنني لم أصل لهذه المرحلة من الكراهية لأقتل عريسا ليلة زفافه بينما عمي وجه فورا سهام شكه تجاهي وطالب برأسي.

انتقلت للقاهرة عند أحد معارف أبي في (فيلته) بالمنصورية، وعملت لثلاثة شهور فقط في مزرعته الملحقة بها، وخلال هذه الفترة قدمت أوراقي للسفارة القطرية بسرية تامة. كانت الأمور أكثر سلاسة من الآن، تقدمت لمكتب توظيف وغادرت لأعمل أي شيء.. المهم كانت وصية أبي التي كررها كثيرا وأخبرني لأضعها حلقة في أذني: إياك والعودة .

ومن هنا بدأت رحلة الهروب من الثأر ولكني مظلوم بحق ولم أفعل

شيئا، لكنهم لا يعترفون بما أقول ولن يسمحوا لي بأن أدافع عن نفسي أبدا، فللصعيد قوانينه الخاصة! لذا لم أفكر بما ورائي ولا بمن أحببت، لأني صرت أحارب من أجل روحي وحياتي فأخذت عهدا على نفسي أن أسافر وألا أنسى "نظلة" أبدا.

فجأة غادر هاني موقعه من الصالة متجهما تاركا صلاح خلفه ودخل غرفته وأغلقها بالمفتاح، لينزعج صلاح ويلحق به. عند وصوله لباب الغرفة حاول نقره، لكنه تذكر حالته حين غضب ولم يكن ليزعجه هاني وتحمله بكل صدر رحب رغم سماعه لنحيب مكتوم من داخل الغرفة... فقرر الكف عن سؤاله عن حكاياه، وابتعد عنه حتى يهدأ.

بعد انقطاع دام لأسبوع عادت جلسات السمر والسهر ليعود معها صلاح لاستعراض عضلاته في استقطاب النساء لحظيرة قلبه. لم يقاطعه هاني أبدا، بل على العكس صار يُنصت بشغف أكبر ومهمته تحضير الشاي وأطباق المكسرات ومنفضة السجائر التي تنتهي في آخر السهرة متخمة بالرماد.. ليسترسل صلاح:

- حين تزوجنا أنا ونسمة ومضت أمورنا متزنة، ومن بيت متواضع بالإيجار إلى شقة تمليك بالدقي لعشقها تواجدنا في نفس المنطقة التي تقاربنا فيها إلى بعضنا البعض.. اجتهدت كثيرا وعاودت تماريني من جديد خاصة أن (الجيم) أصبح فيه كل الأجهزة التي

تمكنني من متابعة رياضتي المفضلة، وكل المدربين الذين عملوا عندي كانوا رهن إشارتي.. كانت أسعد لحظاتي حين رزقني الله بابنتي سلوى... حينها انهالت العروض الكثيرة بالعمل والبطولات لدرجة أكدت لي أنها هبة جميلة.. قدوم ابنتي للحياة هي المحطة التالية للتصالح مع أمي، فأرسلتها هي ونسمة إلى الدوحة بعد عامين من ولادتها ليتعارفوا.. ولم أذهب معهم. شعرت وقتها أنني بحاجة لترميم العلاقات فيما بيننا من جديد عن طريق ابنتي!

- هل علاقتكما متوترة إلى هذا الحد؟

- والدتي حكمت علي بالعقوق لأنني قررت أن أجعل سعيد وسارة يغادران البلاد لتقليل نفقاتهما وأرسلتهما إلى صيدا.. فوضعي لم يسمح بأي التزام.

- ولماذا لم تذهب معهما؟ إنها أمك ألم تحاول استرضاءها؟

- ديوني السابقة من لعب القمار وكذلك الرهانات التي اشتهرت بممارستها والتي أدت لإفلاسي بالنهاية ربما تعني أنني ملاحق في نظرهم، ولو وطأت قدمي أرض قطر فسيقتلعون روحي من جسدي... فلم أرد المجازفة، وأحببت تعويض أمي عن غياب ابني سعيد، وظننت بمرور الوقت أني سأصلح ما أفسدته من قبل، لكنها فرحة لم تتم، فلا شيء يفسد العلاقات إلا غيرة النساء وكيدهن.

- شوقتني! ماذا فعلت غيرة نسمة؟

- أبعد مما يصور لك خيالك، نسمة تغار من غيرتها، من الهواء الذي يمر خلالي.. من أهلي ومن كل شيء، تجازف لفعل أي شيء من أجل أن تبقي عليّ رهينة في قفص قلبها!

- ألهذا الحد؟!

- أحيانا كنت أخاف من ابتسامتها، صمتها المتواصل وقت المشاكل التي عادة ما تنتهي بتقبيل يديها كي ترضى، أشتري لها الذهب والورد... عشت على مراضاتها أكثر من مراضاة أمي!

ولكن حين سافرت لأمي وتعارفتا، لم تقتنع بوجودي بعيدا عنها، فعادت أسرع مما كنت أتخيل ولم تنس حقائبها المتخمة، لم تترك شيئا إلا وأحضرته من اللُعب لأحمد ابن طليقها عمرو الذي تركته مع أمها. أفخم الثياب من الماركات المتنوعة لسلوى ويداها أصبحتا عامرتين بالذهب، كله من حسابي يا عزيزي. لكنني في النهاية استطعت التخلص من كل هذه الغيرة بواقعة لم أحسب حسابها يوم قامت الثورة في مصر!

انشغل هاني لفترة وعاد صلاح إلى سابق عهده حبيس غرفته الضيقة ويطل من وقت لآخر من الشباك ولا يعرف ماذا ينتظر، يتساءل هل ستدور عجلة الحظ لصالحه هذه المرة، ينكمش في سريره ويسرح في

خياله ثم فجأة فتح حقيبته وأخرج مذكراته وجلس يقرأ:

معالم صادق تغيرت حين زارني في نهاية عام الوباء قبل فرضهم العزلة الطويلة، فبانت على ملامحه تضاريس الشباب رغم الكمامة التي تخفّى وراءها وقد شارف على السابعة عشرة.. لاحظ صادق أيضا هُزالي لمرور كل هذه الأعوام بالسجن، إضافة إلى فرض الحظر الذي طبق في عموم البلاد وكل العالم خوفا من (كوفيد) وقلة الطعام أثناء فترة الحجر القسري، كان اللقاء الفاصل الذي لم أحسب حسابه. فقد منعت عني بعد ذلك كل الزيارات وغابت كل الوجوه.. مع الأسف لم يكن السجن فقط هو الحاجز الواقعي لكن المرض أصبح حاجزا نفسيا.. لم يسمح لنا بالعناق أو التقبيل.. فقط علينا أن نتحاور من وراء زجاج ولمدة دقائق..

أرخى صلاح جسده على السرير تاركا مذكراته وعاود بعقله الحدث:

لم أنس أبدا وجه صادق حين بدأ حديثه محملا بحزنٍ صخريّ:

- كنت أحلم أن أراك في ظرف مختلف، لقد فعلت كل ما هو بمقدوري كي أتمكن من الحصول على دقائق معدودة ولولا الاستثناء ما رأيتني.

- لماذا توحي ملامحك بغمام أسود وكأنك ستمطر أخبارا حزينة.. هل هناك أكثر مما أنا فيه؟!

- هناك خبر صادم.. أمنا.

لبّد حاجبيه واستعد لبرق خبره: - ما بها؟

صمت صادق لثوان شعر معها صلاح برعد الفاجعة:

- تكلم، ما بها؟

- أمي فارقتنا.

- اللعنة على (كورونا).

- كيف عرفت؟

- وهل هناك ناج من (كورونا)؟!

- أجل، لقد أصيبت بصعوبة في التنفس وتخيلنا جميعا أن ضيق نفسها قد يكون الكوفيد خاصة أن الموجة الثانية كانت أعنف، والطبيب أخبرنا بأنها مناعيا ضعيفة وقلبيا تحتاج دعامة جديدة..

- لا تأخذني ببرودك، بالله عليك، أسرع؛ الوقت ضيق!

- كنا على مشارف نوفمبر حين قرروا تركيب الدعامة الثالثة في القلب، الحمد لله نجحت العملية وطلبت من الطبيب بعدها بساعات التواجد معها لبعض الوقت لكن الطبيب شدد على ضرورة الالتزام باللباس العازل والكمامة والقناع (البلاستيكي).

أخيرا التقيتها ..كانت تمتم بجملة لم أفهمها وفيها اسمك، ثم نامت لساعات، حاولت أن أوقظها لكنها ظلت مستغرقة في نومها إلى أن فاجئتني باعتدال جسدها وكأنها تواجه شخصا ما، تتكلم بغرابة

بصوت رجالي ثم تحولت الغرفة إلى مسرح أحداث.. طاقات غريبة استنفرت معها مشاعري، كدت أنهار بالبكاء وأنا أراها تشير إلى اللاشيء وتتحدث إلى من تراهم بلغة مبهمة. اختنقت من الرعب، أحاول النطق فلم أتمكن.. انعقد لساني، وحين لمستها كانت كمن أصابه مسّ؛ اهتز جسدها بعنف ثم سقطت مغشيا عليها على السرير. وقتها أسرعت للخارج بكل طاقتي هربا من المشهد، خفت أن أسقط على وجهي من كثرة الأشياء التي تغطيني، مستنجدا بالممرضات طالبا الطبيب، تيبست بعدها في مكان بعيد وأنا أتابع حركة الطابق المستنفرة، أجهزة تدخل وتخرج.. يركضون ليخبروني بما ترتب عن نقص الأكسجين برئتيها، وعليهم التعجل في عمل تحاليل دقيقة، أشعة مقطعية على الصدر، لتتأكد إصابتها وتسقط ضحية للوباء اللعين. أسبوعين من العزل انتظرنا شفاءها ودُمّرت رئتاها، وأمام رعبي عليها ينتهي المشهد بمواساة الطبيب بمنتهى البرود، وكأنه اعتاد الموت كما اعتاد المواساة: - البقاء لله، حاولنا ولم نتمكن.

راح صلاح يبكي كما لم يبك من قبل، فقد ودعت أمه الحياة بغرابة وقسوة! بمرضٍ اشتدت أعراضه في موجته الثانية عن الموجة الأولى، كانت أشد فتكا وافتراسا للبشر، تصيدهم الأعراض ثم يقضمهم الموت وتبتلعهم الأرض ابتلاعا جماعيا مرهقا ..

دُعامة قلب الثورة

عاد هاني إلى شقته وقد أفرغ من وقته أخيرا لشغفه بسماع باقي قصة صلاح، أعد العشاء ولوازم السهرة كالمعتاد، ثم نقر الباب لاستدعائه للجلسة، اعترض صلاح في البداية ودارت بينهما طاحونة كلام حتى تنازل تحت إلحاحه عن عزلته ليعود لسابق أيامهما لكن شيئا لبد جو الغرفة.

التهم صلاح العشاء ورشف الشاي وهو يحاول استعادة توازنه فبدأ حديثه:

- حين جاءني عرض لبطولة كمال الأجسام في يناير عام ألفين وأحد عشر في الكويت.. سافرت لهم بعد اشتراطي عليهم وجود سيارة (مرسيدس) لاستخدامي الشخصي، وجناح في أحد الفنادق الفخمة. اتفقت مع نسمة على أنها الفرصة المناسبة للتسويق (للجيم) في الخليج انطلاقا من دولة الكويت. بت أحلم بتسديد القرض بسرعة وإيجاد شريك يستطيع رفع الحمل عن كاهلي لكن حدث ما هو أبعد من ذلك.

لن أنسى أبدا يوم الخامس والعشرين من يناير أي بعد وصولي

بيومين، تحولت ليالي الجمال إلى مأساة، قامت ثورة مصر في يومٍ يوافق عيد الشرطة حددته عدة جهات من المعارضة المصرية والمستقلين ولم أفهم ماذا يجري! هل (سيناريو) ثورة الربيع العربي في تونس (فيروس) انتشر عبر الأجواء ليصيب مصر؟ هل سيمر بالمنطقة كاملة أم فقط تونس ومصر؟ لم أكن أهتم كثيرا بالسياسات لا الداخلية ولا الخارجية، فالذي يولد بعيدا عن وطنه لا يمكنه الشعور بانتماء إلى شيء! لكن وجود أسرتي في بؤرة حدث متأججة أثار حفيظتي وجعلني على دراية تكفل لي تفهم الأمور.

خفت من العودة للقاهرة، القلق راح يأكلني بخصوص سلوى، ولم أكف عن متابعة الأخبار عبر (التلفاز)، المتظاهرون في ميدان التحرير.. معركة الجمل.. المصابون، الموتى، والكثير من اللامعقولية! لكن تهدئة "ليندا الخطيب" لي جعلتني أصمد قليلا، غيبتني عن وعي الثورات لتنقلني إلى خيال الحب، لم أعرف إلى أين أذهب وماذا أفعل؟ أقنعت نفسي أنه لا يمكنني العودة في ظل ظروف غير مأمونة، فلست مصريا لأعود للوطن حتى وإن كان لديّ إقامة، إلى أن تنحي الرئيس...

شهق هاني:

- الثورة وليندا؟ كم ثورة لدينا؟!

- الثورة لم تأت عبثا يا صديقي، فالجميلة الشقراء وحيدة أبيها.. ذات الجذور الفلسطينية، استأجرت لي شقة أثناء الأحداث التي ترتبت على الثورة المصرية، كفلتني وختمت لي إقامة بعدما وظفتني مع والدها براتب سخي مراعية عدم قدرتي على العودة للقاهرة أو حتى إدعائي بذلك نظرا لما آلت إليه الأحداث السياسية وحالتي القلبية. فأنا لم أحلم أبدا بما وصلت إليه حتى انتهت إقامتي المصرية وأنا عالق في الكويت لأكثر من ستة أشهر. فقصدت أن أكون على مقربة من قلب ليندا.

ضحك هاني بصوت عالٍ متنمرا:

- أتذكر حين قلت لي أن قصتي تشبه المسلسلات الدرامية المصرية، سأردها لك؛ فحكايتك من الأفلام التي غلبت (سينما بوليوود).

ابتسم ابتسامة عريضة وتابع:

- لقد تلقفتني أنت كما تلقفتني ليندا في أضعف لحظات حياتي وساعدتني.

- وماذا حدث يا بطل الأبطال؟

مال صلاح على الأريكة ووضع أصابعه تحت ذقنه يحركها بطريقة لا إرادية:

- يا صديقي، منذ لحظات خروجي على المسرح أؤدي فقرتي في الحلبة

باستعراض عضلاتي، التقت عيناي بها جالسة في الصف الأول جوار أبيها ببدلة أنيقة، وبمجرد انتهاء فقرتي وجدتها قد سلبت روحي. ليندا عشرينية.. وجهها كطفولتي البريئة التي ضاعت وسط التجارب، عيناها الزرقاوان يعكسان فرح الأيام الغائبة، شعرها الذهبي يشبه رغبة الشمس بابتلاع البحر ورغبتي بأنثى لم يمسسها أحد من قبلي. بكل حماس كانت عيناي تبحث عن طوق نجاة وسط عواصف الزمن، النساء غالبا ما يؤمنّ بفحولة الرجل ذي العضلات بغض النظر عن سنه ..فما بالك بوردة ندية لم تتفتح بتلاتها بعد؟

تعالت صيحات هاني بالإطراء هذه المرة:

- شوقتني كثيرا.. ما فعلت.. أكمل أكمل!

- حين انتهيت من المسابقة قررت أن أشتبك معها في الحوار بأي شكل ولَم أتوقع أن يأخذ مني هذا الأمر برهة من الزمن، فانتظاري جوار سيارتي الفارهة التي استأجرتها كانت فرصة العمر لتغريها بالصعود إلى حياتي.. فحسبما تيقنت فيما بعد أنها وحيدة تربت على الدلال والغنى، ونجحت بسرعة حين تقدمت لوالدها بخطوات واثقة وقبل مبادرته بالحديث.. فاجأني قائلا:

- أنا أبو راشد الخطيب، سعدت بك يا نجم النجوم. أعجبني فيك ثقتك وهدوءك حتى إنني لم أر سواك في المسابقة، كذلك ليندا..

اسمح لي أن أدعوك للعشاء.

لقد قدم والدها فرصة لي على طبقٍ من ذهب فشكرته مبتسما:

- أقبل دعوتك، لكن اسمح لي أن نذهب سويا بسيارتي.

- ولكن معي سيارتي! وأنت ضيفي.

- اعتبره رجاء.

هز أبوها رأسه موافقا وركبنا سويا، نتحاور طيلة الطريق لكن عينيَّ لم تخطئ وجهها القمري ونوره السماوي، خطفت جميع حواسي، أشعرتني أني ملك الغابة خلف المقود ينتظر غزالته لتكون فريسته.. كانت ليلة فوق مستوى الخيال، توجهنا إلى المطعم الدوار في أبراج الكويت على شاطيء الخليج، فبينما كان النادل يضع الطعام صارت حواسي مسلوبة متسمرة على فاكهة عينيها، تبث لي فضاءات الحب لأركض بها نحو حديقة من حدائق الجنة وما إن انتهينا حتى انتهزتها فرصة لأطلب يد ابنته.

انتفض هاني غاضبا:

- هذا يعني أنك طلبتها للزواج قبل الثورة!

تلجلج صلاح يحاول لملمة ارتباكه:

- هذا صحيح، ولكن الثورة لم تكن فقط في مصر بل في قلبي أيضا الذي أيقظ مفاهيم تصحيح الأوضاع وارتأيت أنني أحتاج البكر

لتكون لي زوجة.. ظننت أنك تفهمتني!

هاني مجلجلا مستنكرا:

- إذن، لا تحاول إقناعي أنك طلبت يد ليندا لأنها احتوتك وقت الثورة ثم تصف الحب وفضاءاته! أنت مراوغ كبيريا صلاح!

- ولكن..

رغم إنصات هاني له بكل جوارحه إلا أن غليانا أصاب عروقه:

- طبعا يا (دنجوان) لا بد من وجود مبرر لكل جملة ستبثها شفتاك المغمورتان بكلمات العشق، ولكنك لم تخبرني ماذا فعلت نسمة...؟

- أعترف، الثورة أنقذتني من غيرة نسمة اللانهائية والتي استماتت لتعرف مصيري، وعدم سؤالي عنها أفضى بها إلى رغبة مجنونة لتلحق بي بالكويت بعد استقرار الأوضاع قليلا.. لا أدري كيف تمكنت من استخراج فيزا رغم صعوبتها ولكن نسمة لا يصعب عليها القيام بأي شيء لتحقيق أهدافها،فأسكتُّها في البداية حين أخذت مبلغا كبيرا من ليندا لسداد القرض لتعود به وتتركني، ثم مع مرور الوقت تأكدت من تعمدي نسيانها بتقصيري نحوها هي وسلوى بعد رفضي مقابلتها أكثر من مرة.. رغبتي الجامحة بليندا نازعتني، ابتعدت عن نسمة أكثر واقتربت من ليندا بطاقة جذب سريعة.. فماذا لو كنت مكاني ووجدت كل أحلامك تجسدت في امرأة؟

قطب هاني حاجبيه معلنا الاعتراض على ما يسمع:

- أنا لا أفهمك.. دوما لديك نواقص تداويها بالزواج من النساء؟ لماذا تتزوج وتنجب وتتخلى وتعيد الكرة من جديد؟ ونحن نصيبنا زوجة واحدة فقط هذا إن وجدت!

تلكأ في الحديث ثم فاجأه قائلا:

- لقد حمدت الله لتمكني من الهروب من نسمة فهي لم تكن غيورة فقط، لقد اكتشفت من أحمد ابنها أنها تفعل أشياء غريبة، ولم أصدقه إلا حين راقبتها وشاهدتها تقْطر ذات مرة سائلا على طبق تُعده لغدائي! تراجعت ببطء كي لا تلحظ ما رأيت، وقررت البحث عن سبب ما تفعل.. أحيانا يقتلني السواد الذي يملأ قلب نسمة.. من هول صدمتي لم أعد أعلم هل أواجهها أم أهرب منها؟!

- لم أفهم ماذا تقصد؟

- هو سحر تضعه في طعامي، لذلك حين تزوجت ليندا لم أخف عنها مطلقا وجود ابنتي، وهي تفهمت صراحتي ..رتبت معها كيفية أخذها من أمها لأنها ساحرة! لكني فوجئت بتمكن نسمة من زيارة أمي بعد غيابي، فرفضي لها كان دافعا لها لتترك صغيرتي هناك في الدوحة بعدما ثرثرت كثيرا مع أمي حول شكوكها بزواجي! أمي لم ترحمني وانتهزتها فرصة لتخبرها عن سارة وابني سعيد أيضا.

تسرطنت مشاعر نسمة وقررت تنفيذ خطة محكمة لم تأخذ منها وقتا لتدميري.

بدأتها بفتح مجال من الأفكار الشيطانية للانتقام برفع قضية على أمي بأنها اختطفت ابنتنا لتتدهور الأمور، هي الأسرع في نفث السم وقتل الجميع نفسيا. تابعتُ الأحداث من خلال رسائل أخي صادق الذي نقل لي مجريات الأمور، فأنا أعتمد عليه وأحسبه لا يكذب، قد تسببت لي بانهيار نفسي حين وجدتُ أمي في قضية لا ناقة فيها ولا جمل مما جعل في حلقي مرارة بعدما صالحتها وآمنت بأنها رضيت عني وغفرت لي ما سبق من أخطائي... أشعر أنه ذنب سعيد الذي تركته دون مصروف ولا سؤال! ما أبشع تلك الحياة التي في قلب نسمة لقد فاقت بقسوتها تحجّر قلب أمي والتي كلما مرت بصدعٍ قاومته، ولن تسمح لامرأة مثل نسمة بالقيام بحرب ضدها بالوكالة.

رفعت أمي قضية مضادة متهمة نسمة بالتسبب بالإضرار بسمعتها مطالبة إياها بالتعويض وباستغلال فرصة زيارتها لهم في الدوحة وترك ابنتها بإرادتها الشخصية لتتخلى عن واجباتها كأم وإنها لا تزال على ذمة ابنها، فكيف تخطف الجدة حفيدتها؟! بالطبع أمي ربحت القضية وظلت ابنتي معها.

تعددت أدوار الشاي هذه المرة بينما استكمل صلاح قصته بثورة

حادة في ألفاظه لم يعهدها هاني من قبل:

- غريمتي وبهدوء شديد انتقمت من أمي لتعصف بي الرياح وتغضب مني غضبا عظيما لا مسامحة فيه، ثم انتقمت مني برفع قضية خلع وكسبتها في غضون ثلاثة شهور لا غير، لتتغير حياتي وتنقلب رأسا على عقب.

تفوقت طليقتي المصون على أمي في كل شيء... أشعر بمظلمة سارة التي لم تنطق كلمة الطلاق ولو لمرة واحدة! صحيح أنها رفعت قضية ضدي للنفقة، واسمي صارعلى ترقب الوصول حسب ما وصلتني الأخبار من أمي وقتها، ولكني لا أعرف ماذا فعلت بعد ذلك، فقد شطبت هذه المرحلة من حياتي تماما، ولم أفكر مطلقا في مقاومة ما وضعته لي من قيود، انشغلت بالحياة الجديدة وقتها.. ليندا غيرت مني ومن حياتي .

أطلق تنهيدة طويلة ثم أكمل:

- الآن أنا نادم وأريد رؤية ابني لأعوضه عما فاتنا سويا.. سعيد كبر وحده مع أمه، لكنها ستظل ملجأ لي كلما تكالبت علي الدنيا، ولا أعرف كيف أعتذر لها؟ ظلمتها من اللحظة الأولى حين أفنيت عمري لاهثا باحثا عما أفتقد، وسأظل جائعا أجري كالوحوش!

- هل فكرت بالعودة للقاهرة من جديد؟

- لن سأعود يا صديقي.. أنسيت أن نسمة تركت ابنتي مع أمي بعد خلافهما الأخيروكأنها تخلصت مما يربطنا ببعضنا البعض.

- ولكن الغريب محاولتها ضمان وجودك جوارها، ووضع السحر لك في الطعام، أبعد ذلك تتخلص سريعا منك هكذا!

- إن نسمة شخصية انتقامية فعلا، لكن أعتقد أنها اكتفت بانتزاع الشقة التي كتبتها باسمها مقابل التنازل عن القضية التي رفعتها ضد أمي، وتخلصت من مسئولية ابنتي، ولا أعلم هي مع من الآن؟ أمي ماتت وأبي غير العنوان وإخوتي هاجروا وصادق اختفت أخباره ولا أعرف شيئا عن مصير سلوى!

قاطعه هاني:

- زرعت بذورك في أرض بلادٍ بور.. ولم تسقها جيدا يا صلاح!

الخطايا غربان والأخوة نوارس

إن غياب جارتهم القديمة مدام فاطمة عن الاتصال به فترة طويلة قاربت الشهر أثار قلقه، لم تكن حكاياه لهاني تمنعه من البحث الدائم عن أهله، صار الفضول قاتلا، يريد أن يعرف أين اختبأوا ولماذا؟ ليزورها ذات نهار فتخبره عن ترْك صادق له رساله مغلقة بعدما استلم الأمانة التى تركتها لها منذ مدة، ولكنها نسيت إبلاغه لتعب ألمّ بها، فض الرسالة، قرأ بعينيه:

"لا أصدق أنك خرجت من كهف الظلم أخيرا، وأحمد الله على نعمه وأعتذر لك بسبب تواجدي الفترة الماضية بالخارج لترتيب مؤتمر خاص بمجموعة الجاسم التي أعمل بها لتسويق العقارات. لم يعد يمكنني التخلص من عادة الهروب بالسفر يا أخي.. فأنا لا أطيق أي شيء هنا ولا أي ذكرى تربطني بالمكان.. أمي تركت فراغا كبيرا بعد رحيلها وكأن الأرض لا تنفك تبتلع كل من عليها في سنتيّ الوباء.

الحياة تمضي بعدها لتبدو وكأن لم ينقصها بشر على سطحها فلم يعد لدي سوى أبي الشيخ الكبير الذي راعيته في البداية، ولكن الحمل

أصبح ثقيلا بعدما هاجمته الأمراض وعلى رأسها الزهايمر، فهو بالكاد يعرفني وحواراته عبارة عن هلوسات وضلالات فكرية أنبأني عنها الطبيب النفسي، وجدت نفسي أمام تجربة قاسية وغريبة.. والدي المهذب صار عصبيا هجوميا تتناوب عليه موجات غضب وانفعالية مزاجية قاسية! وأنا لست خبيرا بتلك الأمور ولا يمكن أن أترك عملي وأجلس جواره طوال الوقت فأحضرت له ممرضة مقيمة.

اعذرني لن أبلغك بمكانه فهو لا يتذكر أحدًا منا وعقله لا يربط أي حدث بآخر.. أقواله متضاربة ولا يتذكر إلا قليلا من طفولته في لبنان، وحتى اللحظة يعتقد أنه يسكن في فندق وأننا سلبنا منه بيته عنوة! كل هذا الانفصال العقلي يجعله غير مدرك وغير محاسب أيضا.. بل ووجود وجوه جديدة تعمل على استدعاء ذاكرة الماضي مما يسبب هياجا جديدا له.. صدقني ستحزن كثيرا إن رأيته هكذا، خسر الكثير من وزنه.. إنّ حياتنا تغيرت بعد سجنك بالتأكيد ولا أحلم بمزيد من التغييرات.

إن الهرب حق شرعي لي خاصة أني أرفض الزواج في هذه المرحلة، مازن ولبنى هاجرا إلى ألمانيا ولا يريدان العودة لأي دول عربية أبدا. وخلال رحلتي الأخيرة مررت بهما، شقّ الفرحُ الغيومَ السوداء

فـ "لبنى" ستتزوج قريبا.. صحيح أن زواجها تأخر كثيرا ولكنها تحاول الشعور بالسعادة المفقودة لربما ترزق بطفلٍ ينسيها ما فات من آلام ويؤنسها.

أما مازن تزوج فترة قصيرة ثم لاحق زوجته بالملامة لعدم إنجابها.. لم أفهم سر تعجله وعدم صبره، إلا أنها كانت ذريعة لطلاقه وهروبه بعيدا عن قطر؛ تماما كما لم أتمكن من فك ألغاز حياتك.

لقد ركز على صناعة الأجهزة والانغماس في المعرفة.. بدأ مشروعا يكفيه شر الوحدة لذلك لا يكف عن العمل ليل نهار.. لم يحاول يوما أن يتحدث عنك ولو حتى عن طريق الخطأ أو الصدفة!

دوما ما دعمتني ودوما ما كنت أغطي على أخطائك كما فعل أبي، بالمقابل لا تأخذ بنصيحة أحد وتفعل ما تشاء.. فلا كبير في حياتك سوى رأيك! وحين استلمت خطابك توجست خيفة أن يكون قد أصابك مكروه.. قرأت ولم أعرف كيف خرجت ولا متى؟ وماذا تتوقع مني أن أفعل لك الآن؟!

ثم دعني أتوقف عند ليندا زوجتك السابقة، عادت موطنها ورفعت دعوى خلع ونفدت بجلدها منك! أجهضت طفلها بإرادتها إن كنت تجهل، استعرّت من سجنك ولم تصبر! كانت أذكى من زوجاتك السابقات فهي صغيرة ويحق لها أن تعيش عيشة كريمة، آآآه.. ما

أسرع ما تزوجت! أعذُرها صراحة، سددت ديونك العالقة في قطر لتتمكنا من العودة إلى هنا معارضة أهلها في ذلك، ثم خنتها مع رفيقتها شذى التي لفّت حول عنقك كل المغريات وأوقعتك في فخ ألاعيبها.. من أكبر أخطائك أنك سجلت لها شريط (فيديو) خلال ممارستكما الخطيئة في مكتبك! هل نسيت أخاها الضابط ؟ لقد نصب لك كمينا ليحرز (الفيديو) ثم يهددك به.

تماسكت زوجتك وقتها كي لا يحل الخراب بينكما، ظنًّا أنها بالغفران والمسامحة ستعيش عيشة هنية مع البطل. لقد أخطأت، فأنت لا تنفك عن الانغماس في الخطايا.. كيف تعريت من التزامك الديني وتحولت هكذا؟! هل تعتقد أن أخبارك لن تصلنا في هذا البلد الصغير؟ كل من فيه يعرف أخبار الآخرين.

صلاح لم أعد صغيرا كما تظن، لذا رجائي الحار انتظر مني خطابًا آخر أُعلمك فيه ما لم تعلم، أمهلني أسبوعا واحدا لأرتاح من عناء السفر! "

أخوك ..صادق

أغلق الأوراق بعنف وقد تملكه غضب رهيب! فأسرته ازدادت تشتيتا، والقلق ملأ قلبه من الألغاز التي وعده صادق بفك طلاسمها فيما بعد.

راح يتساءل لماذا يستخدم هذه اللعبة ليعرفه كل شيء؟ ما مصير

ابنته؟ وهل وجع البعد والفقد في سنينه الضائعة ليس كافيًا لتعود صفحته ناصعة مشرقة؟ هل سيظل يحمل توابع إثمه وخطاياه لبقية العمر؟ يرى نفسه شخصا عاديا بطموحات طبيعية.

على الموعد الذي وعده به صادق اتصلت مدام فاطمة لتخبره بوصول خطاب جديد، وحين سأل عن صادق أخبرته أنه غادر منذ نصف ساعة وحين توجه إليها صدمته كلماتها:

- لا يمكن أن تفوتني رائحة الحنين ورابطة الدم! هاك الخطاب، ولكن أشبع فضولي وكن صادقا... هل أنت صلاح؟

تلجلج وهمّ بالمغادرة:

- نعم أصبتِ... إنه أنا.

فتح الباب مغادرا واستقل (تاكسي) ليأخذه ناحية البحر، قدماه تجرانه إلى مكان العائلة المفضل على شاطيء الوكرة. جلس ملتقطا أنفاسه فقد جانبه الخوف من مضمون الخطاب، ففضه وراح يقرأ:

"لا تتعجب! ما زلت أحافظ على شعرة معاوية التي تربطني بك، فلدي اعترافات تنتظرك! الحدث جلل، وظرفك لم يكن يسمح لتتحمل ما ستسمع، أما الآن فأصارحك... أمنا، هي من أبلغت عنك ووضعتك في السجن..دون رحمة، وكلما انتهيت من حكم دست لك عن طريق معارفها بزوجات الوزراء حكما جديدا، استغل المحامي ثغرات

قانونية محبكة، لا أستطيع فهم السر في ذلك. لكن نواحها قبل الدخول في غيبوبة الموت وترديدها لاسمك ..وقولها سامحني على ما أذنبت في حقك ..جعلني مندهشا منها..فلم أعرف الوجه الخفيّ لأمي إلا في تلك اللحظات.

شكت لي أن كل مَن حولها يكرهونها، حتى عزرائيل لم يكن ليقبض روحها البائسة! فهمت منها رؤيتها لبدايات انحرافك حين سرقت أسورتها الذهبية، أتبعتها سريعا بسرقات متعددة كنت تُفرح أمي بها.. أخبرتني أنك حاولت إقناعها بأنك تعثر عليهم صدفة، ثم حين ركزت وجدت أنك في كل أسبوع تحضر لها قطعة ذهبية فكان من الصعب كل هذه الصدف! قطع ذهب ذات مصدر مشبوه.. فتيقنَت أنّ مالك حرام.. هكذا أخبرتني بصوتٍ مختنق يملؤه الندم.. وأنا الذي دارت بي الدنيا فاتحا فاهي بدهشة وضيق، متسائلا: هل أنت بقايا روحها العارية؟!

ظننت ساذجا أن طرفا من العلة هو إبعاد ابنك عنها حين أعدته إلى لبنان بعد تعلقها به تعلقا مرضيّا! أو ربما لأنك تزوجت الساحرة نسمة كما كانت تطلق عليها! أو ربما لأنك لا تكف عن الزواج وترمي أولادك في كل البلاد ولا ناجٍ من عبثيتك!انظر كيف اضطررتُ لرد سلوى لأمها كي تدخلها المدرسة، فلماذا ستنفق أمي عليها مما كنزت؟

تعلم كم هي حريصة على ألا تنفق المال لأنه ضمانتها بالحياة. انظر ماذا فعلت حين تزوجت بالشابة ليندا والتي أحضرتها من الكويت لتسدد عنك كل ديونك في قطر من مالها الخاص، ثم تفتح لك عملا تجاريا جديدا. أمي بسعادة ومكر حبكت لك كل المصائب، لم أتمكن من التفوه بحرف.. فلكل شيءٍ تفعله مبرر منطقيّ مقبول، فهل تذكر شذى؟ حاولت الزج بها في طريقك لتخرب بينك وبين زوجتك. لكن ذكاء ليندا اكتسح الخطط ولم تصدق والدتك برغم تأكدها من خيانتك، وتغاضت لأنها تحبك.. نصبت أمي لكما فخا جديدا بوجود شريكك الأمريكي الذي نصب عليك ووقعت أنت فريسة سهلة فكل شيء باسمك.. ونجحت في التفرقة أخيرا بينك وبين ليندا.. لتقضي على مستقبلك .لقد اعترفت بخطاياها وشددت على رغبتها بأن تسامحها، صدّقني لم أتمكن من إرشادك، كنت أشبه بمن وقع في طينٍ أسود كلما همّ بالنهوض كُتبت له شهادة غرقٍ بوحل أفعالها. نصيحتي الأخيرة.. حاول أن تلملم شتات أولادك الذين شارفوا على الضياع، وسامحها لأن اللّه يغفر ويسامح، ولا تجعل قلبك مثلها مملوءا بالحقد والغل."

الوداع!

أطبق صلاح بيديه على الخطاب بغضب، غير مصدق أن كل ما فيه هو

من فعل أقرب الناس.. أمه! حاول القيام لمغادرة المكان فتأرجح لكنه حاول التماسك.. راح يتمتم: - شيء فظيع! موجع حد الموت! أن أخرج للعالم بعد أن أهدرت من عمري عشر سنوات ظانا أنه بإمكاني إعادة ربط المسبحة التي فرطت من حبات عائلتي فما وجدتها.. أتوهم أنه بإمكاني علاج ما أفسدته يداي، أقاوم الصعوبات.. العقوبات.. والصدمات، ثم يسقيني القدر من كأس الوهم دفعات، حتى يختل توازني النفسي. علاقتي بأهلي ربما ستندثر قريبا لتأخري بضعا من الدقائق عن موعد التوبة المطلوب.. موجعٌ ألا أجد مسكنا لآلامي ولا أحدًا يجرؤ على طبطبة روحي.. أن أتساءل أسئلة لا نهائية تلف حول رقبتي لتخنقني! ألا أفهم لماذا نصيبي من الحياة هكذا! أمٌ قاسية حد الانتقام، متطرفة المشاعر حد الانفصام! هي السيدة ونحن عبيدها ولن ينجح أحد في الخلاص أو الحرية.. أيُّ مشاعر حمقاء أستطيع بها تبرير ما يحدث لروحي المنهزمة؟! أي عذرٍ أتلمسه لها وهي لا تعشق إلا ذاتها المريضة بالمال.. روحي متخبطة فلا معايير،لا مقادير ولا مبررات تسمح بهكذا تصرف.. كنت أظنها غامضة فقط.. لكنها مليئة بالأسرار ومثيرة للاشمئزاز، هزمتني علامات الاستفهام التي اصطادت بها أفكاري فوصلت معها للفناء الروحي... لن أرتاح أبدا ما حييت!

علاقاتٌ.. تتبخر

عاد صلاح بخفيّ الألم إلى بيت هاني... وحين دخل ظل واجما من فحوى الرسالة حابسا نفسه في غرفته، حتى ما إذا جنّ الليل طرق هاني الباب مستفهما عن سبب غيابه عن سهرة الليلة، فتح له الباب ووجهه مصفر يابس يسأله:

- ما الذي حدث؟ هل قابلت صادق؟

- لا! لقد قابلت الغدر والخيانة مجتمعين!

- لا أفهم!

- دعني أخبرك هذه القصة من البداية فهي نابعة من نهر أمي العكر، تكلّست ضفافه، نتوءات الوجع حفرت ندوبها كلما مرّت على قلبي المبتئس.

- لم أفهم!

- اسمع لتعرف:

أمي كبنات جيلها زوجوها صغيرة بالإجبار، كأنها متاع بيت أو بضاعة مسموح لهم ببيعها وشرائها.. تماما كما جدتي التي تزوجت ابن عمها بنفس العادات والتقاليد البالية، فأنجبت له الإناث فطلّقها. سارعوا

بتزويجها من جديد لرجل آخر بحجة أن بقاءها مطلقة في عائلتهم الأصيلة عار!

حين مات جدي.. لم يربِ أمي سوى إخوتها الرجال، فهي الأصغر بينهم.. كبرت ولم تعرف سوى الحرمان والقسوة والأوامر في بيت يضج بالآراء المختلفة والطباع المتسمة بالحدّة. أخواتها البنات من أمها يعشن في مملكتهن حيث الرفاهية، وهي في كمد العيش وكأنها خادمة البيت الكبير.. حاولت جمع الألغاز من فضفضة أبي في نزهاتنا معا، أو من بعض جمل كانت تقذفها أمي في وجه لبنى إذا ما عاندتها .

- ما زلت مدهوشا فما علاقة أمك بما يدور؟

- أظن أنها عاشت حياة من الشقاء، تفتقد السعادة والمعنى الحقيقي للأسرة والعائلة.. حكاياها لأختي عن خدمتها للبيت الكبير بكل من فيه ظلم كبير.. فلم تبصر منهم غير التفرقة.الكبار لهم الأولوية، الرجال هم أصحاب الكلمة والأميرات ذوات الحسب والنسب المتأصل، يطلبن فيُطعن، هن يحافظن على الأصالة والعراقة للعائلة، يتمتعن بحياة أفضل مع أبيهن، أما هي..مادةُ تندّر لهن كلما جاءوا لزيارة جدتي (الآمرة الناهية).. التي تستطيع التحكم بهم جميعا والتسلط كيفما شاءت.. البيت الذي يُفتقد فيه الزوج تصبح مهمة

الأم فيه صعبة وشاقة ولابد من تفلت بعض الأمور منها.. فتولدت مبكرا الأحقاد بين الأخوة والأخوات.

لقد شردوا أحاسيس أمي زهي صبية حين أحبّت، حجزوا روحها في قبوٍ مظلم ثم نعتوها بأقبح الألفاظ... وأنا دوما أتساءل: هل الأمومة صكّ أمان لصاحبته كي تبطش بمن حولها؟ هل هي عنوانٌ ضخم لاستعبادٍ مقدس تحت بند الطاعة؟ أي الذرائع تلك التي تنقذ أنفسنا من الهلع؟! هل مسيرتنا بالحياة مسيّرة لا مخيرة؟ لا ترانا كأبناء بل كبلاءٍ هبط عليها وتريد الخلاص!

- ....

- أمي شخصية تمردت على ثوب أنوثتها، فهل أمرضها ذلك؟ عاشت حياة طويلة يملؤها الظن السيئ بالآخرين، حاولت تحرير روحها من ظلم أهلها لرفضهم تزويجها بمن تحب وأصرارهم على الارتباط بمن لا تحب.. ولا أدري هل انفصم عقلها؟ لذا لم نفهم كنه تصرفاتها، أو حتى لا نتوقعها!

- لا قانون سيحمي غفلتنا عن حرية الروح، لا تبرير للطاعة إلا إن اقتنعنا... نحن مرضى نفسيون نمشي على أرضٍ تبذر الشر لينبت حُصرمًا وقلّما تجد فاكهة تروي ظمأ غيظنا من أهوال الدنيا.....

سقطت من عيني صلاح دمعات حسرة وضيق:

- مهلا .. لم أعد أفهمك! هلا فسرت لي؟ لِم كل هذه المقدمة؟

فصرخ صلاح..و الآهات تخرج من بين أضلاعه:

- أمي مَن أبلغت عني لأدخل السجن!

قاطعه باندهاش شديد:

- ماذا؟ أمك أبلغت عنك!

- عشر سنوات من الظلم، أنت لا تعلم ماذا رأيت في حياتي، ولن تصدقني حتى ترى الندوب في جسدي من جراء التعذيب الذي ذقته ولقاء ماذا! كل ذلك حين قررت لنفسي حياة جديدة بعيدا عنها.. لقد أرسل أخي الذي تعلقت بأمل لقائه رسالته الأخيرة تؤكد هذه المعلومة ..انتظر حتى آتيك بها.

تركه وهو يصرخ:

- لم يعد أخي.. لم يعد أخي.

سارع بالتقاط الخطاب وفتح كف هاني وألصقه فيه ليقرأ.. تنهد بصوت مسموع..توقف عن البكاء فجأة،مسح دموعه ثم أردف:

- حديثي معك يُشعرني بالراحة بعد تقيؤ الوجع.. بداخلي حزن رهيب وفقدٌ فظيع لا أعرف متى سينتهي؟! هل هذه أمومة طبيعية؟ هل نحن عبيدها؟ كيف تفعل بي ذلك؟

- ألهذا الحد؟!

- في قلبي وجع كبير تجهله، وأنا الآن أريد أن ألملم جراح الفرقة وأبحث عن فلذتيْ كبدي... لم تعد تهمني النساء.. ولا أهلي..يهمني أن أجدهما.. أحتضن خوفهما وأخبرهما أن كل شيء مر بي لم يكن خطئي وحدي.. تبتُ إلى الله وسأتغير لأبدأ من جديد!

أطلق صلاح كلماته وتوقع أن يكون موقف هاني كأبي عدنان، لكنه تفاجأ بسلاسة رد فعله وهو المطارد، المطلوب للثأر، حيث تقبله على علاته...

حلّان طرحهما هاني لا ثالث لهما.. إما أن يجدد لصلاح جواز سفره وبطاقته لكنه حينها سيغادر عائدا إلى لبنان بلا عودة، ولا يعلم ماذا سينتظره من قضايا ومفاجآت في لبنان؟! أو استخراج جواز سفر مصري مزور يمكنه من دخول لبنان بسهولة وكذلك مصر ليستدل على أبنائه، ثم وعد منه بأن يقف معه وقفة حقيقية في تذليل كل الصعاب ليحقق أهدافه.. وسيرافقه في رحلة البحث في لبنان وسيترك أعماله هذه الفترة،سيأخذ إجازة طويلة ويعتبرها نوعا من الاستجمام.

في البداية استنكر عليه صلاح كيف لم يفكر في استخدام نفس الفكرة ليتمكن من رؤية أهله بعد غياب عشرين عاما، هاني استحسن فكرته فربما حانت الفرصة لاستعادة روابط اسرته وملاقاتهم بعد

الغياب.وعده بأن كل الأمور ستكون لصالحهم لكن عليه الاتفاق أولا مع صديقه محسن لإعداد ترتيبات سفرهم فهو الشخص المناسب لهذه الأمور. صارحه صلاح بأنه بعد الانتهاء من حل أموره وملاقاة أولاده سيقف معه في كل خطوة، سيرد الجميل بأي صورة..لن يترك أحدا يضره وسيقاتل من أجله.

تبادل الصلاح والشرف

كتب صلاح في مذكراته في صفحاته الأخيرة:

حين تصل مرحلة أبعد من الحزن وأعمق من الألم وأكبر من التحمل، تصمت لأن الكلام لا يشفي غليلك، تدمع ولا عَبرة واحدة تسقط من مقلتيك، تتمنى أن يعود الزمن للوراء ولا قدرة لك على ذلك! حين تتوحد الأقدار على نبذك بعيدا وأنت تسبح عكس تيارات الكون.. تتأرجح بين مدارات الحياة فتجد نفسك على أكبر مدارٍ للوجع! حين توزع كل الإيجابية على المحيطين وتنفد جعبتك وأنت تبحث لنفسك عن طاقةٍ تستكمل بها مشوار الحياة، تعجز وأنت تفرط في ضغط أعصابك كي تحقق المعجزات.. حينها تقف على مسافة لا نهائية من الضياع لأن كل ما يدور حولك يمضي بالعكس. وتتفنن في إقناع نفسك أن الغد القادم أكثر إشراقا من ذي قبل لكن هذا الغد ربما لن يأتيَ أبدا.

أغلق دفتر مذكراته وخرج من الغرفة باحثا عن هاني، عبر له عن تكدره الشديد لانغلاق الأبواب جميعها في وجهه، وأن قطر لم تعد ملاذا ولا مأوى واستهل حديثه:

- أريد المغادرة من هنا.. وبسرعة أرجوك.

- استرح يا صديقي وأنا سأتدبر كل التفاصيل! أنا ومحسن سنقوم باستعجال الإجراءات!

تابعا حديثهما حتى قطعه جرس الباب، ليلتفت هاني مجددا إلى صلاح:

- ربما قد جاءت البشرى!

دلف محسن داخل الصالة محملا بالأكياس وقد تملكته ابتسامة الانتصار:

- انتهت الإجراءات سريعًا بنفس سرعة الأفكار المطروحة، كان أسبوعًا مريرا لكنه كفيل بالفرح.

ألقى عليهم تحية الصباح وهو يشير إلى أحد الأكياس بيده:

- خمّن ماذا في تلك الأكياس يا صلاح!

- لا أدري.. فأنا محبط جدا.

- لا.. لا دع عنك الإحباط الآن، وجميلٌ أن تحلق ذقنك لتولد من جديد وكذلك الضفيرة التي لا تليق بملبسك؟

امتعض صلاح فلا تعارف مسبق بينهما سوى مرات ثلاث وشعر بجرأة تدخله وكأنه يعرفه عن قرب ليخلق في نفسه حالة من التوتر فرد بعصبية:

- سأحتفظ بهما.

تدخل هاني محاولا تخفيف حدة التوتر التي نشبت بينهما دون سابق إنذار أو قصد:

- هات الأخبار الحلوة.

- الأخبار تبدأ حين يقوم صلاح بفتح ما أحضرته له، هيا تناول مني الأكياس جميعها.

تناولها منه وذرفت عيناه الدموع حين وجد بداخلها بدلة سوداء، بالطو من الصوف الغالي، قميصًا أزرقَ مقلمًا بالأبيض، ربطة عنق قانية، زوجًا من الشرابات وحذاء لامعًا.. احتضن محسن، وأنّب نفسه لظنه السيئ به وشكر هاني كثيرا:

- أنت أخ حقيقي.

- لا تقل ذلك، لقد تعاهدنا.

تابعهما محسن مبتسما وهو يشير له بضرورة تغيير ملابسه، وتبادل النظرات مع هاني معاتبا، فقد بذل مجهودا لا بأس به، حتى غاب صلاح عدة دقائق في غرفته ليعود وقد تبدلت ملامحه إلى علامات رضا وسرور:

- ها.. ما رأيكما؟

ظل محسن صامتا بينما ضحك هاني منتشيا:

- أميرٌ حقيقي.. هكذا هم رجال الأعمال، البس معطفك فالجو قارص البرودة ثم هات حقيبة اليد التي منحتك إياها وضع فيها متعلقاتك التي ستغادر بها.

- سنغادر الآن؟

- نعم! ألم أقل لك دع عنك الإحباط! وكن على استعداد.

- لن أنسى فضلك يا هاني.. كل ما أُمني نفسي به أن أجد ابني.. ابنتي بعدما فقدت الأمل في مسامحة أهلي، وأنا الآن لا أملك سوى حقيبة يدي.. قليلٌ من الأوراق... والمذكرات.

- لا بأس سأتمم أنا على إغلاق المنزل هيا بنا.

بنظراتٍ ودموع ودع صلاح المكان الذي اكتظت جنباته بروائح حكاياته طيلة شهور مضت ليغادر ثلاثتهم إلى المطار.

وعلى البوابة ذي الرقم اثنين في مطار الدوحة، دلف محسن إلى الموقف المخصص للسيارات لينزلا برفقته عن يمينه ويساره إلى داخل صالة السفر، كانا ملفتين للنظر ببنيتيهما القويتين، عضلاتهما الضخمة، فهما يلبسان أيضا نفس المعطف الأسود والبنطال الأسود وسط كهلٍ ببدلته الفخمة. مروا سريعا من خلال المسافرين وهما يحاوطان صلاح يحافظان على حياته كرجل أعمال مهم، لصيقان به حد الموت، يرجما مَن حولهما بنظراتٍ تتفجر شرا، توجهوا إلى

الجوازات مرورا بكل إجراءات الأمن وقلب صلاح يرتجف رعبا من اكتشاف أحد مغادرته المطار بجواز سفر مزور، فأخذ يردد بهذيان:

- شريف عبدالله النادي.. شريف عبدالله النادي!

توقف صلاح عند موظف الجوازات وهو على وشك عبور بوابة الخوف إلى بوابات الأمل من جديد، وتلفت نحو هاني المنتظِر لدوره ثم نحو محسن الذي أنهى إجراءاته وتوقف بعد الجوازات منتظرا لهما.. ثم انتفض مع سماع صوت ختم الجواز؛ ابتسم الموظف متمنيا له رحلة سعيدة.

تنفس جميعهم الصعداء أخيرا بعدما صعدوا للطائرة فكل شيء مضى كما يريدون، مروا بين مقاعد الطائرة، ابتسمت لهم كبيرة المضيفات، أشارت لهم بالجلوس في مقاعد ثلاثة متجاورة حسب ترقيمها على بطاقاتهم، فتوسطهما صلاح وكأنه فأر محشور بين كومتين من لحم.

أعلن قائد الطائرة عن ضرورة ربط الأحزمة وأبلغ الركاب عن مدة الرحلة التي تستغرق ثلاث ساعات وخمس وخمسين دقيقة للوصول إلى مطار رفيق الحريري في بيروت، ثم بدأت تتسارع عجلات الطائرة تمهيدا للإقلاع الفوري. أسند صلاح رأسه إلى الوراء غير مصدق هذه الانفراجة في حياته واستغرق في التفكير مع تحليق الطائرة، أقلعت معها ذكرياته ليتراءى له خيال أمه على ارتفاع آلاف الأقدام ثم

غرق في أحلامه وصار يتمتم:

- ماذا لو أصابني الخرس لفترة؟ هل يستطيع الصمت مداواة الجروح؟ هل كنت أخون نفسي حين أفشي أسراري المكنونة بداخلي إلى امرأة حمقاء عن أخرى مريضة بجنون العظمة؟ هل سيصيبني نفس الداء ذات يوم؟ وما علمي بهذا؟ وما نوع التحليل الذي يؤكد أو ينفي ما أقول؟ كيف أتحمل فكرة وجود امرأة تستطيع أن تضحي بكل شيء من أجل مجدها الشخصي حتى وإن كان هذا المجد قد يطيح برأسي أو رأس أيّ من إخوتي.. إخوتها.. أو زوجها؟! مَن الذي أستطيع إخباره أن أمي تكره كل شيء، حتى الحب.. حتى نفسها؟! لم تعرف معنى السعادة.. ونحن بالنسبة لها نتاج خطيئة الزواج.. رغبتها لم تكن في هكذا ارتباط، أرادت ذرية الحب الذي بترته العادات والتقاليد. هل الخرس يعني ألا أفشي ما بداخلي حتى لبنات أفكاري؟

فزع صلاح وكأن كابوسا أطبق على صدره وصرخ عاليا وهو يهذي:

- لماذا..لماذا؟!

فتحولت الأنظار جميعها نحوهم مما حدا بمحسن للالتفات نحوه بصوت خفيت:

- استيقظ.. لا تنس أنك على الطائرة.. وأماء للمسافرين قائلا:

- لابد أنه رأى كابوسا.

بابتسامة صفراء وكزه خوفا من أن يبوح بأي شيء يكشف به عن نفسه:

- تنبه! أجِّل النوم لوقتٍ لاحق.

قاطع حواره تواجد المضيفة التي أشرفت على توزيع الطعام.. لتناول صلاح كوب ماء قائلة:

- أأنت بخير سيدي؟ هل أستدعي طبيبا؟!

أومأ صلاح قائلا:

- لا بأس، أنا بخير أشكرك، إنه مجرد كابوس، فقط حبة صداع من فضلك، ووسادة.

تدخل هاني في الحوار مبتسما:

- لا تقلقي سيدتي؛ كل ما هنالك أن المرتفعات تزعجه، الطعام سيريحه بالتأكيد.

ضحكوا جميعا ثم غادرت المضيفة مكانها لتعود له بحبة صداع فابتلعها صلاح وتجرع قليلا من الماء، فالتفتت نحوه وقالت بصوت ناعم:

- سآتيكم بالطعام الآن، إن شعرت بأيّ ضيق بالتنفس مرة أخرى أو أي مشكلة نبهني.. سأكون بالجوار.

- شكرا لك يا سيدتي.

كظم صلاح غيظه من محسن وطريقته في الحديث عنه، عدّل جلسته من جديد على المقعد الذي بدى أضيق من حجرة السجن التي عاش فيها سنينَ طويلة ودار حوار جديد في نفسه:

- يهيؤ لهذا الثور أنني أفعل ذلك متعمدا ولا يعلم أن ما بي من أحزانٍ يفوق ارتفاع أحلامي التى شابت من فرط القيد.. لا يعلم أن الزمن يحاسبني على ما اقترفته أيادي الغير لي من مذلة ومهانة.

أسكت كل الكلمات وبدأ في تناول الطعام على عجالة ليخرس الجوع الذي حلّ به، وبعد أن انتهى، نظر من خلال النافذة التي بجوار هاني فرأى السحب المتكدسة مع الغيوم، وتعجب كيف تدار هذه الدنيا بكل هذا التناغم رغم الاختلافات والصراعات.سرح بفكره بعيدا بعدما أغمض عينيه واستحضر وجه أمه من جديد يناورها:

- أمي! يا من كرست جُلّ اهتمامك بصادق لتتركيني وحيدا أعتمد على نفسي في كل فصل دراسي لدرجةٍ أجّجت في قلبي مشاعر متضاربة بين الحب والكراهية، لم تنكري أبدا بأنيّ الأذكى، ولكن هيهات هيهات؛ فالأخير دوما في نظرك الأجمل والأحن والمقرب ليستحوذ على كل شيء.. اهتمامك، رعايتك، وحبك السفيه المتطرف، حتى إنك كلما تركتني بصحبة لبنى كنت أحن للعب مع صادق..

أحسبه دمية جديدة من دمى هذا البيت الغرائبي.. يا لحياةٍ بلا اتزان منطقي تحكمينه كامرأة تظن أنها بلقيس عصرها ولا تعلمين كيف يصفك والدي في لحظات صفائنا.

أفاق صلاح من خيالات الذكريات وهو في حالة بين حالة الوعي واللاوعي على صوت إعلان قائد الطائرة عن وصول الطائرة. هبط الركاب وسارع ثلاثتهم ليوجه هاني تحذيراته لصلاح:

- لا تنس اسمك الجديد! شريف عبد الله النادي كما هو مكتوب بجواز السفر! أنت رجل أعمال تعمل في استيراد قطع غيار السيارات وأعتقد أنها مهنة ليست غريبة عنك، أنت هنا للسياحة فقط و(الفيزا) مختومة على جوازك، هذه ورقة حجزك في الفندق.. أنت مصري فإذا سألك أحد عن لكنتك التي تميل لتقاربهم فأخبره عن عمتك التي ربتك المتزوجة من لبناني وقد تأثرت أنت من كلماتها.

تظاهر صلاح بالثبات حتى وصلوا سويا منطقة الجوازات، ليخبره هاني أنه سيتقدمه في الصف ومحسن سيبقى خلفه.

هز صلاح رأسه بالإيجاب،رافعا إبهمه.. فهو لم يجرؤ على تزوير أوراق ثبوتية من قبل، ولا يعرف كيف سيصبح شريفا؟! إنها لحظة قاسية جعلت الخوف يملأ قلبه فهو تاجر وليس مزورا.

غادروا منطقة الجوازات،قام هاني بفتح جواله وهاتف شخصا

ليخبره بوصولهم، أخبره أنه سيمر بالمنطقة الحرة لشراء سجائره ريثما تصل السيارة لتقلهم،لم ينتظروا كثيرا فقد وصلتهم (الجيب)، قفزوا جميعا بداخلها وانطلقت بسرعة الريح.

إيقاع الصدمة

صحا صلاح ليجد نفسه ممددا وحيدا على سرير وثير، منذ زمن طويل لم يواته هذا الشعور والإحساس بالراحة لانفراجاتٍ تقبع على مقربة منه، على يمينه سرير آخر لكنه خالٍ، هاني ورفيقه غير موجودين رغم رحلتهما الطويلة، قام بالبحث عنهما في أرجاء الغرفة، أزاح الستائر الزرقاء و(الشيفون) الأبيض اللذين يحجبان خلفهما الشرفة المطلة على مدينة بيروت الصاخبة؛ فلم يجد أحدا! تحسس الباب وفتحه بهدوء لم يجد أحدا أيضا! عاد ليغلقه بهدوء أكثر، قرر تشغيل ماكينة القهوة لعلاج الصداع في رأسه من أثر إرهاق السفر، أخرج فنجانا وحاول استجماع قواه متندرا كونه في بلده ولكن بجواز سفر مزور. فجأة ضحك عاليا، جذب الكرسي من زاوية الغرفة جوار الطاولة ثم وضعه أمامه، تناول الإبريق الذي أعلن بصفيره ودخانه انتهاء غليان الماء وكأنها روحه التي تغلي، صب القهوة وتراءت سارة له جالسة أمامه فبدأ في معاتبتها:

- لا أحد سوانا في الغرفة ياعزيزتي.. ما هذه المفارقة؟ أنا هنا الآن وأخيرا لمحاسبتك فلماذا تعجلتِ رفع قضية للنفقة؟ هل أنت سعيدة

بالنصر؟ صحيح أنني هجرت ابني لسنين، لكنك تجرأت على وضع اسمي على قائمة ترقب الوصول.. نسيت أني غرقت في بحر بلد أخرى وتجارة جديدة.. ما أسعدني بالاقتراب منكما،لا يفصلني عنكما سوى برهة من الزمن عن صيدا، سأنتزع منك ابني الذي بلغ سن الرشد منذ مدة وستبقين وحيدة تنهشك العزلة، كيف طاوعك قلبك لطردي من حياتكما دون إطلاعي على أخباركما؟ كيف كبر سعيد؟ هل دخل الجامعة؟ غيابي وتقصيري لا يمنحك فرصة للانتقام ..متشوقٌ لمعرفة كل شيء..كل شيء بأسرع مما تتخيلين. سأسقيك مُرا من نفس الكأس الذي أسقيتنيه.. لتعرفي طعمها في حلقي؟ لماذا لا تجيبين عن أسئلتي.. لماذا؟

أفاق على رنين هاتف الغرفة، من وهم قاعة المحكمة التي نصبها لها وجعل من نفسه فيها قاضيا، شاهدا، حكما ومحكوما عليه؛ شعر بالتعب الشديد وأحس أن تلك المحاكمة العقلية قد استنزفته، رفع السماعة فوجد الاستقبال في الفندق يخبره بقرب انتهاء مواعيد الإفطار بناء على تعليمات أوصاهم بها السيد هاني، تمتم بكلمة نعم أكثر من مرة ثم أغلق الخط.

إحساسه الطبيعي بحاجته للاغتسال شدّه نحو الحمام، خلع عنه ملابسه ثم فتح صنبور المياه ليسقط على رأسه الماء الدافئ، يذيب

عذابات روحه واستشرافه التشاؤمي؛ ملأ البخار المكان ورئتيه حد الاختناق فشعر بضبابية مستقبله، تضادت لديه المشاعر فقرر نسيان كل شيء.. همّ بملء حوض الاستحمام بالماء ورغوة الصابون. استرخى تماما،أغمض عينيه مدة ربما تعوضه عن سنين الجفاف التي مسحت من ذاكرته حياة الترف، انتهى وجفف جسده ليقف أمام المرآة بعدما أزاح بيده بخار الماء الذي غطاها، وجد دموعه منهمرة بصورة لا إرادية، تداخلت مع الماء المتساقط من رأسه ثم حدق في تفاصيل وجهه بضع دقائق مودعا تلك السحنة ليصالح نفسه : سأحلق ذقني الآن كما رغب هاني منذ فترة طويلة، وكما طلب مني ثقيل الظل محسن بالأمس.

وبينما حلق ذقنه، تذكر إحدى عاداته في السجن بعد كل استحمام.. ففي بداية سجنه كان يطيل النظر في المرآة المكسورة، شعره الكثيف يمشطه ويعدل خصلاته المنسدلة حزنا، ربما قضى عمرا طويلا حتى توافق وتسريحته، فكثيرا ما يؤرقه هذا المفرق العجيب الذي يصنع من رأسه حزبين، حزبًا كثيفًا وحزبًا ضعيفًا، وعلى قدر إيمان حزبيْ شعره على قدر ضعفه لحظة الانشطار الروحي عن عالمه الواقعي! لا يعلم لماذا تأثر بكلمات الدكتور محمد المطيري صديق والده حين سمعه يثرثر عنه ذات مرة قائلا لأبيه :

- ابنك يا دكتور عبد اللطيف دائم البحث عن كونه عظيما في زمنٍ أحمق، متعجرفا حد اللاواقعية، لا تملأ عينه ذرات رمل الربع الخالي ولا حتى الماء المندثر فيه قبل قرون.. يريد مقارنة نفسه بشيوخ الخليج.. الموضوع لا علاقة له بالمال قدر علاقته بالعيش خارج الواقع... كالقابض على جمر التعاسة في يده!

ارتدت له روحه من ذكريات أيامه مع أهله حين نادى على اسمه الضابط في السجن وتأكيده على وجوب انتهاء مدة استحمامه، ليتأتي دور روحه التي تتعالى كِبرا عن البشر، يحيط نفسه بالعطور رغبة في التقرب إلى ما يثير الكون من حوله، فكل الأشياء يثمنها بالرائحة كما الحسناوات ولولا رائحة الشوق التي تناديه كل مساء ما أبقى تلك الذكريات في مخدعه وإن عفّت الروح عن الروح...

خرج من حمام غرفته بالفندق بعد رحلة الذكريات، مدد جسده على السرير من جديد. وتساءل بينه وبين نفسه عن سر تأخر هاني ومحسن عنه، وغيابهما هكذا دون سبب، لكنه تحاشى التركيز كي لا يغفل التخطيط للقاء ابنه.

تنبه لوقع أقدامهما يدخلان بهيئتهما المعتادة ووجه هاني دفة الحديث: - هيا البس كي نذهب إلى صيدا.. واستعد لرؤية ابنك.

علت البهجة وجهه وصار يتقافز كالطفل الفرح بجائزة وهو يردد:

- سأضع ملابسي.. وأتعطر.

هاني وضع يده على كتفه محذرا إياه من مغبة الرفض الذي قد يلقاه إذا ما واجههما، فعليه الاستعداد لكل الاحتمالات؛ كي لا تزول فرحته عند باب شقتهما، أومأ صلاح متجاوبا مع مخاوف هاني وانطوى يُعد نفسه لهذه الرحلة.

الطريق لم يكن سهلا، مليئا بالحواجز العسكرية عن ذي قبل. لم يرَ البحر على طول خط السفر، لم يشعر بالزحام ولم يحس للحظة أنه في بلده فأفكاره كلها حول اللقاء احتلت كل المساحات المتبقية من عقله، حاول تخيل شكله فهل يشبهه أم يشبه أمه أكثر ليتذكر تعلقه برقبته عند عودته إلى البيت كل ليلة، ليفيق سعيد على صوت "تكة" مفتاحه في قفل الباب، فقد ارتبط هذا الصوت بركضه من سريره ليبتسم له ابتسامة تنعش روحه، ثم يعاود ملامة نفسه كلما تيقن أنه السبب من حرمان نفسه من تلك الابتسامة حين قرر فصل حياته الشابة عن عائلته، رآها مدسوسة عليه رافضا مسئولياتها المبكرة ثم راضى نفسه بأنه لم يفت بعد وقت تصحيح الأمور، فهو قاب قوسين أو أدنى من ملاقاته.أفاق من صراع الذكريات ليجد نفسه أمام باب الشقة يقرع الباب بلهفة حتى فتحت له سارة وعلت وجهها دهشة أغرقتها في صراخ (هستيري) ثم أغشي عليها.

مقامات الوجع.. (سيمفونياتُ) للحزن

حين أفاقت كانت لحظة التقاء عيونهما كمن أدار المفتاح في بابٍ صدئ ،وكأنها تعاتبه عتابا طويلا لا نهائيا عن الغياب منذ سبعة عشر عاما، بادرته بالقول:

- عمر طويل مَر.. يكفي لتقوم خلاله حضارات ودول، وتنتهي حيوات بشر.. لتبتدئ حيوات أخرى.. لماذا فعلت بي هذا؟ وكيف أتيت؟ من المفترض أنني أجدد كل عام توقيفك على الحدود.. لكي تدفع حصتنا من تهربك من المصاريف.

- أنا لم أتوقع أبدا أن يكون اللقاء كحربٍ ضارية وكأننا عدوّان قاما بتوقيع معاهدة سلام ظاهرية ومن الداخل كلانا يبغض الآخر.. توسمت أن فتات العيش الذي بيننا ربما يمهد طريقا فيه قليل من المواساة لي ولحالي.

- كلامك مستفز جدا.

قرر أن يقترب منها أكثر وبكل حرص محاولا فتح صفحة جديدة:

- أعلم أنني قصرت في بناء هذه الأسرة التي أتعستها عن عمد، وأشكر صبرك الطويل على رعاية سعيد الذي لم يسعد في غيابي،

رمّلتك دون موت حين تركتك زمنا طويلا جريا وراء رغباتي فكنت زوجة بلا زوج وأما وحيدة تربي شابا لم يتعلم من أبيه أي معنى من معانٍ للرجولة...

خطت انفعالات سارة تظهر على وجهها الذي خمش الزمان في تفاصيله وبعصبية لافتة قاطعته:

- أنت لم تترك لنا أي فرصة لعمل أي شيء؟ أنت والغياب والأضرار تكالبتم علي وعلى سعيد... لولا ابنتاي اللتان حضرتا من العراق لما وجدتني قادرة على الوقوف أمامك هكذا! كيف تجرؤ بعد كل هذه السنين أن تأتي إلي، وكأنك أودعت ابنك في بنكٍ للأمانات؟ وأنت لم تستر وجيعتي ولم تحتوني ولو لمرة واحدة.. لا أظن أنك وضعتنا على خريطة اهتمامك أبدا، غبت وحمّلت جعبة قلبي بوعود كاذبة لا تسمن ولا تغني من جوع.. أهملتني وتطلب غفراني لك ولكن ما ذنب سعيد أن يجد نفسه بلا معين ولا معيل؟! ما ذنبه كي يشقى وحيدا.. يعمل في كل شيء وأي شيء ليضمن لي لقمة عيش؟! هنا في لبنان مررنا بكل ما هو مُر ولكن ما أدراك أنت بمعنى المرار؟! لولا تواصلي مع أمك لما عرفت مشاريعك المختلفة هنا وهناك.. تأثرت الحقيقة لدهشتي بانقطاعك بلا أسباب.. زيجاتك غير المبررة.. تجاراتك الخاسرة.. حتى حبسك لم أفهم أسبابه.. فوالدتك عند

تلك النقطة تحفظت ثم انقطعت عني ولم أفهم لماذا...!

- أعلم تقصيري واعترفت لك ولربما لن تصدقي ما دار حولي من مكائد كي أجد نفسي في سجن لا ينتهي وتجديد أحكام لا يمكن لها أن تحدث إلا بتوصية شديدة كي لا أخرج، لكنني والحمد لله خرجت؛ حتى أمي ماتت وأنا في السجن، سامحيني أرجوك!

- رحمها الله رحمة واسعة، لولا المال الذي كانت ترسله من وقت لآخر لا أعلم ماذا كنت سأفعل؟ حضورك لا ضرورة له ولم يعد هناك شيء يربطني بك، يكفيني وجود ابنتيّ ..قررتا العودة للسكنى معي أخيرا وأتمنى لو تطلقني إن كنت رجلا يعي معنى الرفض.. بإمكاني المسامحة أو التغاضى لكن بعد كل الذي حدث لا يمكن أن أغفر لك أبدا.

- أنا لا أفهم عن ماذا تتحدثين؟ ما الذي حدث؟

انفجرت باكية تنوح، فحاول تهدئتها دون فائدة، فدخل والدها منزعجا وأمسك بتلابيب صلاح وطلب منه المغادرة.. فاستوقفته سارة:

- أبي دعه، فلربما لا يعرف فعلا أين سعيد.

رد عليها وهو يجز على أسنانه بحنق:

- سارة كفاك ...

تراكمت فوق صدر صلاح مشاعر قبضت قلبه وقد لفته كلامهما:

- أخبراني أين هو؟ سأذهب له في كل الأحوال.. أعطني عنوانه فقط وأنا كفيل أن أتحدث معه ،سافعل لك ما تشائين.

سأحاول إذابة الثلج فيما بين قلبينا ..صدقيني وسيسمعني وربما يغفر لي.

انهارت سارة باكية وتمتمت بكلمات مرتعشة:

- سعيد تعددت أشغاله ليساعدني في البيت، حتى إذا ما شب وجدته يخبرني عن عزمه السفر إلى بيروت، ولأني عارضته من قبل على الانضمام إلى أي حزب والدخول في أي أمور تثير القلاقل لم أرفض طلبه... ربح كثيرا من العمل في بيروت خاصة أن العمل لا يحتاج إلى خبرة أو لغات فقط جسم ذي قوة.. عمل أسبوعا كاملا على البحر وبات سكنه مع بعض الذين تعارف إليهم هناك!

- سارة لا تحكِي قصصا.. أعطني العنوان فقط!

لطمت سارة على خديها باكية:

- مات سعيد يا صلاح.. مات أتسمع؟

بانهيار شديد لم يمكنه من التحكم برباطة جأشه لكنه قفز واقفا:

- ماذا؟

- حاولت إتيانك بالخبر برفق لكنك لم تشأ السماع!

سنده والدها ليجلس وقد تعرّق وجهه بغزارة:

- لا لا لا أخبريني من فضلك.. أنا ..أنا .. لا أصدق! احكي كل التفاصيل أريد أن أعرف كل شيء..أتفهمين؟ كل شيء!

أخذت سارة تهذي باكية وكأنها تستحضر المشهد:

- في هذا اليوم المشئوم من عام الوباء، سمعت كبقية الناس عن حريقٍ شب بالمرفأ.. تابعت الخبر وكلي قلق لأنه من المفترض أن ينهي سعيد عمله عند السادسة، شاهدت الانفجار حيا أمامنا على الشاشة.

ثم وقفت سارة لتدور حوله دورانا هستيريا صارخة:

- دخانٌ أبيض..انفجارٌ برتقالي.. سحابة سوداء .. عيش غراب! .

انهارت سارة جوار صلاح:

- ولم أصدق ما رأيت.. لقد ارتجت بيروت، مما جعل عاليها سافلها.

ثم توجمت فهزها صلاح بعصبية:

- أرجوك أكملي يا سارة لا تتركيني رهين الأحداث! يا ألله ..رفقا بي..أنا لا أعلم ماذا كان يحدث بالخارج، فقد منعوا عنا الأخبار في السجن.

- دمارٌ ودماء.. حاولت الاتصال بسعيد ولساعات طويلة والخط مغلق.. قررت الخروج فورا مع والدي فرعبي لا يمكن وصفه.. الوساوس التهمت أفكاري.. ولا أقوى على الشرح لك ماذا واجهنا

من صعوبات على الطريق، حتى صافرات الإسعاف لم تتوقف أبدا. بحثت في كل مكان، في المستشفيات المزدحمة.. الوجع كبير وعدم علمي عن ابني شيئا أصابني في مقتل. طرقت كل الأبواب كي أجده.. الكل مشغول والطرقات لم تعد لها ملامح والغبار يخفي وراءه كل تلك الصدمة.. منظر مرعب.. أوقفنا السيارة خارج منطقة "مار مخايل" لأنه من الصعب الدخول إلى حيز الشارع الذي يقطن فيه؛ زجاج.. دماءٌ وأشلاء.. سيارات مقلوبة وصرخات الأهالي الذين يبحثون عن أحبتهم.. علمت من الناس أن بعض البنايات تهدمت وبعضها تحولت إلى مقابر وجثثهم أشلاء.. حاولت الصعود لكني وجدت سلم العمارة يسيل منه أنهر من دماء مختلطة.. الشقق بلا أبواب وكل شيء مبعثر ومدمر.. شهقت وجعا حين رأيت أشلاء في الدور الأول لأحاول الهبوط من جديد بخطى خائفة ومرتجفة، فأي خطأ في تقدير خطوتي قد يكلفني حياتي. رحت أسأل عن سعيد فلم أستدل عليه.. ظللت حتى انتصف الليل.. الليل الذي لم تشرق بعده قط شمس سعيد.أجهشت ببكاء مريرهستيري وكأن اللحظة عادت لتعيشها من جديد:

- لم يعد سعيد ..لم أجد له جثة ..ظللنا طيلة أسبوعين كاملين نسعى ما بين المستشفيات والحي الذي كان يقطن فيه.. لم أجد جوابا

شافيا.. المشهد كله ينحصر بين دعاء أهالي الجرحى وصرخات الوجع ودموع المشيعين، لم أعرف سوى تواجده في ذاك الوقت على المرفأ مع بعض السوريين الذين كانوا يفرغون حمولة لباخرة هناك، ولم يغادره.. حملتُ صورته كي يدلني أحد عليه ولكن لا فائدة... كنت أصف للمارين وجه سعيد وكيف أنه طيب وحنون.. لم يعد سعيد.. فقدته وفقدت آثاره.. لم أجد شيئا لأدفنه في قبره.. ثم لاحقا أرسلوا لنا طالبين تحليل (دي إن إيه) ليتأكدوا من بعض الأشلاء التي اكتشفت على أرض المرفأ هناك.. ابني..حبيبي حطامٌ يمشي على الأرض وأشلاء تناثرت وقت الموت...

هرول صلاح وقد حل الظلام في عينيه بعدما أصابه الهلع نزولا من بيتها، كما الظلام الذي حل على رأس قلبه، خلعوا قلبه الذي نوى توبة نصوحًا لاسترداد أولاده فكان ردّ اللّه لودائعه أقرب. ظل ينتفض دون أن يدري ثم شعر بدوار شديد ،أسرع هاني بإمساكه كي لا يقع وبصوت مهزوز وطلب منهما المغادرة.

أيامٌ لم يحسب حسابها هاني فقد أصيب صلاح بالحمى لأربعة أيام، أخذ يهذي فيهما باسم أمه وسعيد، لم يتمكنوا من ترك الفندق إلا بعد تعافيه وقد كتب له الطبيب المهدئات وحقن أنسولين بعدما اكتشف إصابته بالسكري نتيجة صدمة خبر وفاة ابنه. حاول محسن

وهاني لملمة جراح صلاح وتهدئته، وأكدا عليه وجوب مغادرتهم لأن هناك مهمة أخرى وهي البحث عن سلوى،وعليه التماسك لأنها مهمة ليست بالهينة! فمصر بلد كبيرة وإذا حاولوا السؤال عنها من خلال السفارة فسيكتشفون أنه مسجون سابق ومزور حاليًا .. و مطلوب أيضا، فعليهم الابتعاد عن أي شيء مثير للشبهات.. لذا في التأني السلامة،وعليهم حساب خطواتهم القادمة. رجاهما أن يستعيد قليلا من صحته المرهقة من تدفق الأحداث الموجعة، فوافقا على مضض قبل أن يتوجها للقاهرة.

ال(كارما) تعود سيرتها

كانت بانتظارهم (جيب) سوداء وهم خارجون من مطار القاهرة حيث الطقس معبأ ببرودة قارصة، والجو ملبّد بالغيوم كما ضبابية الرؤية. ظهرت علامات التعب على وجه صلاح بحركته المرتبكة، فركب هاني في المقعد الأمامي بعد أن سند صلاح ليجلسه في الخلف ومعه محسن. غادرت السيارة منطلقة بأقصى سرعة حتى ودعت أنظار المتواجدين هناك.

في محاولاتٍ أشبه بمعركة حسية ضد المخدر أفاق صلاح، ليجد نفسه في مكان مظلم لا يعلم كم من الوقت قد مر على وجوده غائبا عن الحياة، شعور التراخي هذا لم ينل مثله لا في السجن ولا في حياته الماضية..

حاول تعديل وضعية جسده ليفاجأ برباط خلف ظهره على كرسي، المكان مظلم فلم يتبين شيئا، لكنه فسيح جدا من صوت الهواء الذي سلخ صداه أذنيه، فمن يبقى في السجن تميز أذناه هذا البراح، متعب جدا فأسند رأسه المثقل بالهموم للوراء فهو وسط اللاشيء ولا يفهم ما يدور حوله، فراح ذهنه يعصف وهو يصرخ:

- سعيد... سعيد.

أفاق من هذيانه على ظهور ظلال أشخاص لم يتبين تفاصيلهم ووقع أقدام تشبه جنود المعركة، أثاروا دهشته حين أضاؤوا المكان. لم يتمكن من التعرف على أحد، فغر فاهه مشدوها والأسئلة تدكُّ عقله رغم الصداع.. لماذا قيدوه؟ ومن هذا العجوز ذو البنية الرياضية الذي يلبس بدلة تشبه اللبس العسكري بلونها الكاكي؟ بشعره الناعم الأبيض وعينيه اللتين لهما بريق يذكرانه بجده "سعيد"، كان صغيرا في السن حين رأى جده لآخر مرة، راكبا فرسًا في إسطبل خيوله في جبيل في شمال لبنان، ذاكرة صلاح لا تسعفه كثيرا لكنه لا يستطيع نسيان شكل شارب جده المميز، فهو أشبه بأمير تركي من العهد العثماني القديم، التفت العجوز إليه متسائلا:

- ما هي قصتك؟

تمكن الرعب من أوصال صلاح واعتلت الدهشة مساحات وجهه وهو مستمر في الصراخ:

- لماذا أنا هنا؟! من أنت لأحكي لك قصتي ؟ لماذا تقيدونني،ماذا فعلت؟!

رمقه بتهكم :

- كف عن الصراخ! هل أثّر المرض على عقلك أم ماذا؟ أنت هنا لتجيب

فقط.. فلتهد نفسك مختطفا حتى إشعار آخر.. وإلا لن تجد حقنة (الأنسولين) لتنقذك ولا حتى طعاما لتأكله.

ارتعد جسده وارتجفت الحروف في حلقه:

- م خ ت ط ف؟ ليس لي في السياسة ولا في الدين..لماذا تختطفني؟

عقد "طارق" حاجبيه الكثيفين كشاربه ، غلبت ضحكاته أرجاء المكان الفسيح الذي ظهرت معالمه وتكشفت بعد الإشارة لمحسن وهاني كي يشعلا إضاءة كشاف جبار في وجه صلاح، فلم يستطع سوى إغماض عينيه من وميض النور القوي في وجهه محاولا مداراته بعيدا منه، فاجأه طارق بطلبه الحاسم:

- أرغب في سماع حكايتك مع نسمة.

- نسمة!

وبينما هو في متاهة الصدمة فوجيء بهاني الذي ميّزه من صوته وهو يطلب من محسن احضار كرسي ليجلس عليه طارق المنزلاوي. لقد وجد صلاح نفسه في مواجهة غريبة مع رفيقي رحلته للقاهرة، وأسئلة حول زوجته السابقة نسمة..استنفر كل حواسه الغاضبة ..فكيف لهاني أن يوقع به هكذا،حاول الاستفهام مجدداوهو منزعج لكن طارق عاجله بالرد :

- ما حكايتك مع نسمة؟ لا تغفل حرفا واحدا ، أريد كل التفاصيل

المهمة وغير المهمة أتسمعني؟!

- وإن امتنعت ماذا ستفعل؟ فأنا بعد سجني كل هذه السنين لم يعد يهمني شيء!

- إذن ماذا إن قتلت سلوى؟ هل تحب أن أجرها غلى هنا وأتلذذ بسلخ جلدها أمامك؟

- ارتعد صلاح من وقع اسم سلوى وتملكه الخوف الشديد، ردد:

- حاضر.. حاضر، ولكن من أين تريدني أن أبدأ؟

- اسرد حكايتك دون فلسفة فارغة.. هيا.

خرجت الكلمات من فم صلاح بلجلجة واضحة محاولا رفع رأسه للخلف زافرا، مغمض العينين:

- عشت حياتي مع نسمة تجتاحني بمعاركها اللانهائية، ولا يسد جوعها أي مبلغ، ولا يملأ عينيها التراب كي تشبع، لم أعرف كيف ترسم وداعتها.. غير قابلة للهضم.. فقط بإمكانك معاشرتها والتمتع بها، توقعت منها كل شيء إلا أن تسحرني.. تخيلت أني اصطدت قلبها.. لترمي لي بشباكها ثم تصطادني ببراعة، تعرفت إليها حين قدمت من قطر للعمل بالقاهرة وعملت فترة لا بأس بها مع زوجها وحين تركته اختارتني زوجا لها ولم أكن لأجد أجمل منها ثم منحتني ابنة رائعة سميتها سلوى لكن...

سكت صلاح عن السرد، ليعاجله طارق:

- ها.. لماذا توقفت.. أكمل!

- كيف لمثلي أن يحكي وهو جائع؟ أرجوك... فأنت تعرف أني مريض بالسكر والجوع قد يودي بي إلى الغيبوبة.

رمق طارق بعينيه رجاله، فغاب محسن بضع دقائق ثم عاد حاملا لطبق مغطى من القصدير، هم بالمغادرة وهو يوجه نظراته الحادة نحو محسن قائلا:

- فك قيده.. وابق بجانبه حتى ينتهي من الطعام، ثم أعطه حقنته.

مظاهر الجوع أسالت لعاب صلاح وذكرته الرائحة بأيامه في السجن فلم تكرمهم إدارة السجن المركزي ولا مرة، إلا حين أصيب طاقمها (بفيروس كورونا) فاضطروا بعد تأخير لإحضار وجبات للجميع من مطاعم خارج السجن.. التهم وقتها اللحم والأرز البسمتي وشعر بآدميته التي فقدها منذ سنين؛ وقع أقدام طارق العائد من جديد ليستجوبه جعله يستدرك أنه لم ينته من أكله.

لقد ركل له ما تبقى من الطبق.. ولم يترك له فرصة إنهاء ما به وزمجر:

- لن أنتظرك طويلا.. أكمل قصتك!

- قصتي طويلة للغاية تحتاج وقتا أطول مما تتخيل كي أسردها لك،

حين أتتني نسمة بسلوى ابنتنا الصغيرة، تخيلت أنها امرأة متفردة في الحب، لكن الحقيقة أنها تفوقت في الكره، السحر، المصلحة وفي قتل كل شيء يحمل مشاعر جميلة أو حتى بريئة.

جلجل بصوته في المكان:

- هل تجدني ساذجا حتى أسمع تلك الترهات؟ أريد التفاصيل أيها الأبله!

- تريد التفاصيل أم أنك تتعمد أن أبدأ من غرفة نومنا. فهل لديك القدرة على سماع ما تشعر به أجسادنا حين نلتقي على وقع الموسيقى الشرقية بعد أن تتحفني نسمة برقصة جائعة؟!

قاطعه، آمرا هاني بإغراق وجهه بدلو من الماء:

- تفاجأت بجرأتك حقا، وكأنك تريد استفزازي!

يلهث محاولا استلقاط أنفاسه وفهم ما يدور:

- تختطفني ثم تطلب مني حكايتي مع نسمة لتسمع تلك التفاصيل المملة! تعذبني ولا أعلم ماذا صنعت؟ طلبت حكايتي فقصصتها.. طلبت سردي ففعلت، فلم التعذيب؟ فك قيدي ودعنا نتحاور.

- لا حوار... فقط أكمل.

- إذن تحمّلني.. نسمة فرس لم تمتطها إلا الرغبة المجنونة، تحمل نهدين يعانقان السماء وشعرًا غجريًّا أسود كليلٍ بلا قمر ولا نجوم

ليغطي كتفيها. تشرق نفسي وتتوحش رغباتي كلما عانقت في رائحة الشوق ..ثم تستجيب بكل دلالٍ وغنج... لولا سحرها لما تركت كعبها يدق الأرض!

ضرب طارق وجه صلاح بعنف لينزف أنفه وأغشي عليه ثم توعده بالانتقام وهو يصرخ مغادرا:

- أيها الحقير.. اخرس! كفى كفى!

تعثر بطبق الطعام الملقى على الأرض،فوجه غضبه نحو هاني ومحسن: - اغربا عن وجهي الآن.

لم يطل غياب صلاح عن الوعي، استيقظ واستنفر حواسه من جديد محاولا معرفة حقيقة ما يجري غير مصدق، ليجد الظلام يلفه من كل الإتجاهات.. وكيف لا والحياة من وجهة نظره تبخسه حقه دوما؟! ومع هذا تظلل روحه بعض الأمل، معتقدا إن من قعر كل الظلمات قد يولد في قلبه النور! لم يفهم من هذا المدعو طارق ولماذا اختطفه؟ ولماذا يهتم بقصته وسيرته مع نسمة؟! لماذا يضربه؟! وماذا يخفي من معلومات عن ابنته سلوى؟!

ظل على هذا المنوال يأتي طارق بجبروته ليستمع حكايا صلاح وتنتهي كل مرة الجلسة بفورانه وغضبه كبركانٍ زُلزلت أعماقه وتقاذفت حممه؛ حتى صرخ صلاح وقد تمكن منه الإعياء وبصوتٍ

مبحوح: - ألن تخبرني من أنت؟ ما هي طلباتك؟ وماذا بحوزتي كي تخطفني؟ ثم أين دوائي؟ أين ابنتي؟

رد طارق متعجبا مقهقها:

- هل تعتقد أنك على مستوى الحوار؟ أنت هنا سجيني.. أسألك فتجيب فقط!

- أرحني.. لم كل هذا؟ هل تعرف نسمة وهل اشتكتني لك؟

- التزم بالقواعد التي أدير فيها أنا الوقت.. أكمل حكايتك بعيدا عن قصصك الفارغة في غرف النوم.

أومأ رأسه بالإيجاب، وهو يشعر بالخذلان وصار صوته هادئا واهنا:

- لقد سبق وأخبرتك.. نسمة متخصصة في الاصطياد، لم أكن أعرف ذلك ولكنها اصطادتني وهي على ذمة رجل آخر، باعت عشرتي لغيرة غبية ثم خلعتني بعدما أقنعتني بأن أجعل الشقة باسمها واستولت على كل مكونات الشقة،هي صيّاد فرائس ماهر.. لا أكثر! فك قيودي أرجوك، لماذا أنا هنا؟!

- انفعالات طارق تأرجحت ما بين الضحك والصراخ فغادر ليركب سيارته الفارهة.،وصلاح يتمنى لو انتهت حياته أو انفكت أزمته لأن صحته لم تعد بذات الكفاءة ليتحمل ما يدور به.

الحاضر يستقطب شوارد الماضي

أنا طارق المنزلاوي، عشت مكرسا وقتي لعملي في قيادة مصانع الغزل التي ورثتها عن أبي. عملت كعضو سابق في مجلس الشعب، منظم.. دقيق وصارم. ساعدني أبي لأتعلم في الخارج. تزوجت نسمة بتخطيط وترتيب وملاحقة.. لكثرة انشغالاتي لم أتمكن من رؤيتها كامرأة ملتوية، إلا حين نبهني صلاح لما يدور.. دقائق تفصلني عنك يا نسمة وسأتبين الليلة من أنتِ.

هكذا اعتاد طارق محادثة نفسه ومحاورة عقله كلما اختلى بنفسه، فاردا ظهره بعدما أشار للسائق بالانطلاق عائدا به للمنزل. فهو لا يكف عن التفكير في كل صغيرة وكبيرة تدور حوله، يبدو للرائي أنه شخص مغداق وكل توجهاته لصالح الخير..فقط جانبه المظلم لا تراه إلا مرآته!

على امتداد محور المشير طنطاوي وبعد الجسر الذي يصب في شارع التسعين انعطف السائق يمينا ثم توقفت (المرسيدس) خاصته. نزل منها عابرا حديقة (الفيلا) الكبيرة والتي تمتلئ بأشجار الفيكس والأكاسيا والدراسينا ويغطي الأطراف أشجار الجهنمية بألوانها

الرائعة، فيها الكثير من شجر الموالح والمانجو وروائح الورد البلدي، البنفسج، الياسمين والجاردينيا، يعبقون الجو بنسيم معطر ومختلف على الدوام لا يعرفه إلاه... النافورة تتوسط المكان وصوت خرير مائها ينعش القلوب.

دلف مكتبه المصنوع من خشب الأرو، كل زاوية فيها مكتبة عالية الارتفاع تمتلئ بالكتب المتنوعة. جلس على كرسيه الفخم المصنوع من الجلد الطبيعي ثم أضاء (الأباجورة) الموضوعة على مكتبه، والتي تشبه مصابيحها الشجرة بقبعات تعلو رأسها، ثم أخرج من الدرج علبة السيجار وتناول واحدة، قص طرفها ثم أشعلها.. تناول دفتر مذكرات صلاح، أراد اكتشاف المزيد من أسراره أو البحث عن الحقيقة التي صدمته في زوجته نسمة.

كان الورق بداخلها قديما، فتح الصفحة الأولى بتعجل ليجد بعض الجمل:

- مذكراتي الحزينة سأبدؤها الآن ولا أعرف متى سأنهيها.. سجنتني الحياة وأنا لم أفق بعد من صدمة وجودي داخل قفص حديدي. أبتهل إلى الله أن أخرج قبل أن يغتالني الحزن!

قلب الصفحة، وجد رسالة طويلة معنونة:

"إلى أمي".. فبدأ قراءتها بتمعن:

"لا أعرف كيف أصف لك شعوري؟ ليتك تعلمين ما معنى عذابي لفهم نفسيتك الصعبة، هل أنت مريضة بالكراهية وحب التملك؟ كتبت لك وحدك في بداية مذكراتي أستفهم عن كنهك وربما يأتي الوقت المناسب لمواجهتك. أحببتك كأم، لكني كرهت كل صفاتك الأخرى كإنسانة.. تغالين في تصور الأشياء.. تبالغين في حزنك.. هل أنت شيطان ألبسه الله ثوب إنسانيةٍ مزيفة؟ كيف لي أن أعرف وقد عاشرتك سبعة عشر عاما فقط. قضيت طفولة عادية، ربما نلت بعض الدلال قبل أن تأتي الحياة بأخي صادق.. فرق الأعمار لم يمنعني من حبي له، لكن إحساسي بأني لست الوحيد المتواجد في سجل عائلة عبد اللطيف أنتج فجوة من المشاعر مع مازن ولبنى.. هل سألت نفسك مرة لماذا كان مصيري السجن؟ أنا لم أشبع من حنانك ولم أتعلم منك سوى الكذبات المتتالية كي أقتنع أن علي ممارسة الحياة بخبرة تساوي الصفر المطلق.. تركتني أواجه الأعباء باستخفاف منك..ربما سيأتي اليوم الذي ستقرئين فيه ما أكتب.. أستطيع التنبؤ بفنائي حتى وإن بقيت حيا أتنفس بُغضك وكرهك لي.. وربما لن تقرئي.. لا أدري! هل كان اختياري المطلق أن أتفلت من حصار مملكتك؟ السجن عقاب الحمقى الذين يحاولون الخروج عن مدار سيطرتك، تركت حفيدك في البداية بخاطري.. تزوجت أخرى

وأخرى.. فقدت شعوري بالأبوة حين تمازجت روحي مع نسمة.. أنستني كل ما في الحياة عدا لحظات الخلوة معها وما كنا ننقشه على سرير الحب من لقاءات تنتشي لها الذاكرة.. فجعت باكتشافي أسحارها التي تضع فيها من دم حيضها في طعامي وحاولت معرفة ما أنا بصدده، وكيف أتخلص منها ومن سحرها؟ مررت بأوجاع نفسية لا قبل لي بها، خفت على ابنتي اصطدامها بواقع أمها كونها "ساحرة"، فصممت على السكوت.

حتى ليندا لم أتمكن من الشعور بها كزوجة بكر في حياتي... فارق العمر بيننا أوقعني في مأزق، قليل من سنوات المتعة لم تكن كافية لرجل مثلي يحلم بالمزيد.. كل شيء تبدل يا أمي إلا نظرتي لك.. ما زال قلبي يبلور القسوة كي يتحول من شخص محب إلى أناني لا يرى إلا نفسه!

تعالي نضع خلافاتنا جانبا ونفكر كيف وصلت بك الحال حد الجحود في معاملتي؟ كيف نلت عقوق الأبناء قبل أن أعقك يا والدتي؟ لماذا ما زلت في السجن يا أمي؟ ألا يكفي ما فعله بي شريكي؟ لماذا تركتني أعيش وسط غابة من المنحرفين والمجرمين؟ لم تدافعي عني، ولم تحاولي زيارتي!أخطأتُ فلم تقوميني.. سرقت فلم تجتهدي لتخلصي روحي من نقصها، فقط سلسلة من العقابات وجهتِ سهامها نحوي.

وما إن شرع طارق في قراءة صفحة أخرى قلّبها، حتى سمع صوت نسمة تناديه، أغلق الدفتر بارتباك ووضعه في درج المكتب، راح ينفث دخان سيجاره كحلقات من قلق تتكون حول الضوء ثم تختفي .

دفعت الباب تسبقها عطورها النفاذة ، نظر إلى فستانها المزركش وقد تراءت صورها في مخيلته وهي مع صلاح، دقق في سمنتها الزائدة خاصة بعد ولادتها لابنتهما منذ عدة شهور، أعاد سحب نَفَسٍ طويل من سيجاره، ثم سألته :

- حبيبي! هل وقعت التنازل من صلاح؟

اعتدل في جلسته ليكون وجهها في مجابهته وأجاب :

- لا ليس بعد، أريد التمتع بتعذيبه فترة كافية، أريده منهارا لآخذ ما أريد بسهولة.

ضحكت ضحكةً أوجعت السكون في جنبات المكتب.. وأردفت :

- أنا تيقنت من حبي لك ولعنفك، تعرف كيف تُسكت جوعي دون شكوى.فكيف بمهمة سهلة كتلك، هل سيصعب عليك ذلك؟

ابتسم ابتسامة لا معنى لها سوى التقزز:

- أجل يا حبيبتي، اتركيني الآن؛ لدى عمل أقوم به.

- هل أحضر لك العشاء؟

- تذكر ما قاله صلاح عن سحرها وما قرأه في مذكراته ليصرخ

فجأة: لا.

- ولماذا تصرخ؟

- لا شيء، ذهني مشغول، اتركيني وحدي.

أدارت ظهرها وخرجت من المكتب، تتلوى كثعبان الكوبرا بضخامة جسدها وسمّها الذي أصاب صلاح سابقا، ثم تمالك أعصابه وأعاد ضبط نفْسه، سحب نفسا طويلا من سيجاره الكوبي ثم بهدوء شديد قال:

- من فضلك..أغلقي الباب وراءك.

التفتت له مرة أخرى، نظرت له بعين استغراب وهي تغادر. فتح الدرج واستخرج الدفتر. قلب الصفحات الأخرى ليقرأ جملا غير متسقة وبلا عنوان أوتاريخ:

- لم أكمل حياتي معك أيتها النجمة.. يا من سحرتني بجمالك الأوربي وعينيك الملونتين؛ عقدت صفقة الطلاق مع محاميك بعد زيارتك الأولى لي في السجن. لم تغفري لي الغياب كما لم تغفر أمي وسواك من نسائي، لماذا زرتني إذن؟

أقفل الأوراق وأخذته لحظة تأمل وتفكير حين استوقفته علامات تعجب كبيرة وكثيرة وفراغ في باقي الصفحات إلا من تلك الجمل... وتمتم قائلا: هل هو ظالم أم مظلوم؟!

ظل يقلب الصفحات سريعا وبترتيب واضح كما أفكاره وكأنه يبحث عن شيء مجهول يشده لمعرفته، ولكنه يشم رائحة الخبر، وهذه الطاقة جعلته يصل للصفحات الأخيرة بعد أن تغاضى عن بعض الفقرات ليستوقفه تاريخ الثاني من نوفمبر عام ألفين وعشرين:

- ربما اختار القدر هذا التاريخ فلولا اتصال صادق لما عرفت بوفاتك، هو الوحيد الذي كان يودّني خلسة بعيدا عن أوامرك بالمقاطعة، وأنا بعيد جدا عن قلبك.. ولم أعرف بعدها لماذا اختفى مني وكأنه يعاقبني على موتك، ظللت أتصل به مرارا.. الخط مغلق طوال الوقت فدعيني أعترف يا أمي ..رغم أني أخطأت في حقك لمرات، أخطأت أنت في حقي ملايين المرات، فأين دورك في تصحيح الخطأ؟! لم أذرف دمعة واحدة لغيابك لأنك كنت غائبة طوال الوقت عن حياتي وكأني شخص زائد في حياتك تم استئصاله. كان علي أن أبحث عن الحياة في دفاتر الموتى.

أغلق طارق الصفحات والأفكار تعبث به وأعاد المذكرات إلى خزينته المصفحة خوفا من عبث نسمة بمكتبه، ثم أدار المفاتيح وسحبها. صعد إلى غرفته، وجد نسمة مستغرقة في نوم عميق.. أبدل ملابسه ودخل تحت الغطاء تناور عقله الأفكار التي افتضحت زوجته حتى غلبه النوم.

ادخلوا مصرَ آمنين

لم يعد صلاح قادرا على تمييز الأيام من بعضها.. أنصت طارق له بحرص أكبر دون إخباره بعدما قرأ كل مذكراته، حتى حضر يوما بصحبة رجاله، نظر إليه بتعجرف وقد فاض به صبره:

- أنا زوج نسمة وقد كنت شغوفا بمعرفة ماضيك معها.

- ماذا؟!

- أخبرتني أنك استوليت على أموالها وهربت للخارج لتتزوج غيرها.

- أنت؟! تزوجتها؟!

- نعم! أنا فقمت بدور عظيم تجاه أحمد وسلوى،وأنتَ سرقت أموالها!

- هل ربيت سلوى حقا في بيتك؟ أين هي؟! أريد أن أراها أرجوك!

- لقد شحن أخوك سلوى كبضاعة إلى القاهرة وكأنها دمية.. رأيت هلعها على ابنتها حين تعرفت إليها في مكتب المحامي الذي رفع لها قضية الخلع، شعرت بقهرها ووقفت بجانبها كصديق ثم كحبيب حتى تزوجنا.وانتبه! ليس لك الحق أن تسألني عن سلوى.. كنت والدا لها ولأحمد، لكن العرق دساس.. فلم تصمد.

صارخا محاولا أن يقتلع الأصفاد من يديه دون فائدة:

- ماذا تعني ب "لم تصمد"؟!

- تعلم سن المراهقة كم يكون من الصعب فيه التفاهم معها خاصة من تشبع قلبها بالحقد عليك لتركها وحيدة، فحاولت الانتحار مرة حين حاولت أمها إلزامها بالحجاب، ومرة حين فشلت قصة حبها بزميلها في المدرسة وفي كل مرة كنت أنقذها!

- ماذا تقول؟ حاولت الانتحار..ثم ماذا؟ بالله عليك لا تعذبني بقصة مبتورة.

علت ضحكته السماء :

- أعالجها الآن في مصحة نفسية بعدما اكتشفنا شذوذها مع زميلتها بالمدرسة، لم أصدم حين أخبرتني نسمة أنها تنصتت على الباب.. وسمعتها تتشاجر مع صديقتها : "مَن سيكون الرجل هذه الليلة؟!" فحركاتها وشعرها القصير وميولها للعزلة وقضاء وقت طويل مع صديقتها تلك جعلني أشك فيها حتى أثبتت زوجتي صحة ما خالجني.نسمة طار عقلها ولم تعرف كيف تتصرف واضطررت لفصلها عن البيت خوفا على ابنتي وسمعتي.. وقلة الأصل ظهرت؛ قذفتني بدعواتها علي أنا وابنتي كي نلقى المصير نفسه بعدما أدخلتها المصحة كي أنقذها بدلا من أن تشكرني على ما فعلته لأجنبها مصيرا محتوما يؤدي بها إلى الموت أو الجنون.. ناكرة للخير كأبيها! وحين تستعيد

عافيتها لن تبقى معنا ولا حتى في أحلامك!

انهار صلاح رغم قيوده باكيا:

- نسمة انتقمت مني بك وانتقمت من ابنتي بالإهمال، ما هذا الذي يحدث لي؟ أرجوك خذ مني ما تريد ودعني أرى ابنتي!

عدل جلسته على الكرسي المجابهة لصلاح ورفع بيده رأسه وواجهه بنبرة واثقة:

- لا أريد سماع ترهاتك أنا هنا فقط من يقرر ما يجب قوله.فهل تذكر صديقك الذي ساعدك على بيع الذهب المسروق من والدتك؟ هل تعلم ما فعلتَ به بعد فضيحته أمام والدتك؟ وحين ضربتك انهرت أمامها وأبلغتها بمساعدتي لك، ولم تهدأ والدتك إلا حين طردوني شر طردة من المدرسة.

قفزت في عيني صلاح ذكريات نسيها.. أو غابت من مخيلته:

- أنت... طارق المنزلاوي!

- نعم.. وأنت الآن في حضرة رد الديون.

صلاح وقد تحول وجهه إلى تعبيرات دهشة متواصلة وحزينة:

- وهل خططت أيضا للزواج من نسمة؟ لم تربِّ أولادها لله! المصالح والمال.. أنتما شريكان إذن في كل شيء.. اقتلني لا بأس.. فلا أمل لي بعد الذي سمعت.

- ألا ترى أن حياتك مجرد نساء.. نساء.. نساء! ألا يوجد ما يشغل عقلك سواهن؟ كيف تُعيب على غيرك الطمع بالمصالح والمال والسلوك السيء وأنت جزء أساسي من نفس لعبة الحياة؟

نادى على محسن:

- هات عقد البيع وقلم بسرعة.

- تمام يا أفندم.

أعاد نظره باتجاه صلاح الذي تعجب من ردود أفعاله اللامفهومة:

- سمعت قصصك للنهاية، حتى وإن شابها بعض الصحة، ما يهمني هو أسهمك في (السيلفر جيم)، تزوجت طليقتك و ربما أصدقك أنها تفتعل أسحارا بسبب رغبتها الملحة لنقل الأسهم لصالحها.. لكني أشكر القدر لأنك ستتنازل عنها لصالحي وبتاريخٍ سابق للثورة ثم أقوم أنا بباقي الإجراءات للتوثيق..

- كيف وأنا أملك جواز سفر مزور؟

- هل تعتقد أنه سيفوتني هذا؟! من قام بعمله يفعل أي شيء.

ثم جلجلت قهقهته...

- وبعدها سأتخلص منك.. كان بإمكاني فعل ذلك دون وجودك لكني أحببت أن أرى سحنة وجهك و أستعيد منك روحي التى آذيتها في الزمن الماضي

- أرجوك لا تقتلني!

استرسل في غوائه:

- جبان.. لم أكرس وقتي ومالي كي أقتلك أيها الأبله.. هذه ليست طريقتي في اللعب، لا بد أن تظل على قيد الحياة تلعنك خطاياك فتكفر عنها بعيدا عن هنا، أما نسمة وأولادها فلهم حساب آخر..

أدار رأسه مناديا محسن من جديد:

- فك قيد هذا الأبله، ناوله جواز سفره "المزور"، تأكد من مغادرته على الطائرة معك..وأعده إلى الشارع في لبنان ثم جرده من أوراقه.. أتفهم؟ ولنقفل هذا الملف نهائيا.

- حاضر يا سيدي.

- ارفق بي! أريد فقط رؤية سلوى قبل مغادرتي...

- انسَها كما نسيتها طوال الأعوام السابقة، اعتبر أنك لم تخرج وستبقى حبيسا للأبد! هل أصبحت فجأة أبا محترما أم ماذا؟

صمت برهة ثم تقدم نحوه وأمسك بوجهه معنفا:

- ثم إنها ما تزال قيد العلاج النفسي يودون معرفة إذا ما زالت بكرا أو...

- لا لا ليس من المعقول ما تفوهت به! لماذا تحرق قلبي عليها؟ لماذا؟!

- لا أقول إلا الحقيقة.. تحتاج شهرا بعد الفحوصات بدون أي تدخل

أو زيارات من الأهل. فلتشكر ربك أني نقلتها للمستشفى وراعيت فيها الله، وقدرك أن تعيش معذبا بذنب التخلي.

انتحب صلاح بشدة بينما الرجال يفكون قيده، سكب أحدهم على وجهه قليلا من الماء وحاول إسناده ليقيم ظهره، ناوله بنطالا جديدا وقميصا بكم طويل حتى لا يلحظ أحد آثار التعذيب، أسند إلى صدره كيس دوائه وحقنه، ثم ساعده في تغيير ملابسه ليخرج به ولأول مرة على قدميه المتعبتين يجرهما جرا متعكزا عليه. لم ينظر صلاح وراءه مطلقا لكن آلمه ضوء الشمس ثم تملكته الدهشة الكبرى في تمييزه للمكان الذي كان فيه، يطالع يمنة ويسرة ليجد حوله محلات أقمشة بالجملة ومخازن كبيرة حسب ما تراءى له يخرجون من حارة داخل حارة على كل الجوانب ليسمع صوت الأذان من جهة الشرق، تمعن في النظر رغم الإجهاد ليجد نفسه في منطقة يظنها الغورية ..الحسين أو الأزهر حيث تلك الأماكن التي يعبأ جوها برائحة البهارات والبخور.

مشوا مسافة ليست بالقصيرة، وصلاح يحاور نفسه متسائلا: هل من المعقول أن تظل حياته مظلمة هكذا للأبد؟! لماذا يقفل في وجهه أبواب الرحمة؟! حتى وصلا لسيارة تنتظرهم على طرف الشارع، ركب معه اثنان من رجال طارق بينما أدخله محسن جواره وبادره

بالقول متهكما:

- كتب لك عمر جديد! ولكن مع الأسف لن أفعل إلا ما أؤمر به، فأنا مضطر لتقييدك كي لا تهرب. هذا الشتاء يلزمك يا صلاح معطفٌ يقييك من برد غربتك ويغطي خيبتك. أنت لا تساوي شيئا في نظر أحد، تذكر ذلك جيدا. وعطف كبير في قلب طارق بيه كي تغادر.

تأمل صلاح على الطريق المؤدي للمطار ما حوله، لفت انتباهه لافتات تحمل كلمات (Happy New Year 2025)، ورود حمراء مزينة الأشجار على امتداد البصر. تغير كل شيء في القاهرة عما كانت عليه وقت الثورة، حتى إنه لم يعرف الطرق الجديدة ولا الجسور التي يمرون بها. أغمض عينيه متوسلا ربه وتمنى أمنية للعام الجديد.

في المطار قابلتهم ريح باردة جدا لم يعتادوها، فجو القاهرة مهما بلغت برودته ليست كالمناطق الصحراوية التي تتغلغل في العظام دون استئذان، لقد أكدت له تلك الأجواء مكوثه لأيام معدودة في محبسه، وقد شعر به دهرا كاملا.

دلف صالة الركاب وبرفقته محسن وشخصين آخرين لا يعرفهما من رجال طارق، غير مصدق قدوم عام جديد بحبس من نوع آخر، بكى نادما على ضياع عمره الأربعيني بلا فائدة، نظر للأجواء حوله مودعا القاهرة التي تجملت معالمها كامرأة سلمت نفسها لمشرط طبيب

التجميل وفنّه.

استأذن منهما لدخول الحمام.. فمرضى السكري لا يستطيعون مقاومة هذه الرغبة الدائمة بالتبول، التفت محسن وأومأ له بالإيجاب.

مضت دقائق ليست بالقليلة وهم ينتظرونه ليخرج، وما إن لاح شبح روحه خارجا حتى تفاجأ بوجود هاني منتظرا إياه، فتبادلا نظرات كلها عتاب صامت وبركان غضب مكتوم وإحساس بالغدر، هز له هاني رأسه وابتسم ثم غمزه وقال:

- أعلم أنك تراني خائنا لعينا، لكن لا مفر من هذا القدر وإن لم أكن أنا فسيكون غيري، لقد صرفت الرجلين ومحسن وأقنعتهم بأنني أخذت تعليمات جديدة لأنفذها بمرافقتك عوضا عنهما. تأكد أنني لم أنسَ معروفك أبدا في تضميد جراح روحي. تفاعلت معي وكأنك أخي بل وفكرت كيف يمكنني زيارة أهلي والتحايل على الظروف لصالحي. ولن تصدقني إن قلت لك حان دور الشهامة الحقيقية، ستظن أني سأغدر بك مرة جديدة. لقد عاشرتك عن قرب، لك أصل طيب لمسته ولم أجد منك إلا شخصا أضاع عمره في اللاشيء بدون هدف أو سبب. فأرجوك اسمع مني هذه المرة وأطلق ساقيك للريح.. لا تنظر وراءك.. مصر كبيرة تستطيع احتضان كل الفارين

من أقدارهم واللاجئين من ويلات الحروب والراغبين فيها، يذوبون في مجتمعنا المتنوع والمتعدد بلا غرابة خاصة في الآونة الأخيرة بعد ثورات الربيع العربي والممارسات القهرية التى تعرضت لها الشعوب في اليمن ،العراق ،سوريا، ليبيا ولبنان، الجميع يرى أن مصر يدخلها الخائف لتكون حصنا وأمانا.. رغم كل المحاولات لإرهابها وما مرت به حسب ما تابعته عبر الأخبار وأنا في قطر وما كان يوافيني به السيد طارق.. حتى فكرة تعطيشها لم يفلح أحد فيها أتدري لماذا؟ آمنت بيقين أن هناك من يحرسها...ربما من الملائكة وربما الرب.. دوما هناك من يحمينا يا صلاح صدقني... لذا من المهم أن تطمئن.. وتقتنص الفرصة. تنهد طويلا ثم أمسك بيديه ووضع فيها ورقة مطوية : - خذ هذه... عليها عنوان المصحة النفسية، لا تضِع وقتك وحاول إنقاذ ما تبقى لك... ابنتك سلوى.

صلاح وقد بدا عليه ارتباكٌ واضحٌ وانفعالات متضاربة :

- وماذا ستقول ل.. طارق؟!

- لا تهتم.. سأغادر أنا على الطائرة وسأتكفل بقصة مقنعة.. هيا اذهب!لم يصدق صلاح ما سمعه فجرى سريعا خارج المطار بينما تتابعه عينا هاني حتى اختفى أثره ولم يتبق سوى عطره الباحث عن سلواه.

تمت

السيرة الذاتية

- الاسم: عبير محمد شريف العطار – مصرية من مواليد دولة الكويت

- شاعرة وروائية وناقدة

- الإصدارات :

- لحظات فارقة- صادر من مطابع الأهرام التجارية ٢٠١٣ - مصر

- الحب إنسان - صادر من مطابع الأهرام التجارية ٢٠١٤- مصر

- ديوان رهان مرآتي- نصوص نثرية - صادر من مطابع الأهرام التجارية ٢٠١٥- مصر

- تجاعيد زمن - قصص قصيرة جدا – صادر عن دار يسطرون ٢٠١٦- مصر

- ديوان "سِلفي" مع الروح – نصوص نثرية - صادر عن دار الشعلة ٢٠١٧- مصر

- رواية بانسيه – صادرة عن دار يسطرون ٢٠١٨

- وحدك في الصورة تكفي – ومضات صادرة عن دار يسطرون ٢٠١٨

- كتاب القصص العربية القصيرة جدا في مختبر السرديات (عمل

جماعي) الصادرة من المجموعة الالكترونية القصص العربية القصيرة جدا في مختبر السرديات- صدر عن دار رهف ٢٠١٣ القاهرة

- حين يتنفس الخيال – نصوص نثرية- صادر عن دار النابغة ٢٠١٩

- ديوان "سِلفي" مع الروح – نصوص نثرية - الطبعة الثالثة صادر عن دار المفكر العربي للنشر والتوزيع ٢٠٢١- مصر

- ديوان "ويحسبه الظمآن شعرا" – نصوص نثرية –
صادر عن دار المفكر العربي للنشر والتوزيع ٢٠٢١

- حاصلة على بكالوريوس العلوم جامعة القاهرة ١٩٨٧ ودراسات عليا - تخصص تجويد القرآن من معهد الدراسات الاسلامية بالكويت ١٩٩٥ ودبلوم ديكور داخلي من الولايات المتحدة الأميركية بالمراسلة ١٩٩٩

- حاصلة على شهادة الثقة المهنية لممارسة النقد الذرائعي العلمي – من حركة التصحيح والتجديد والابتكار في الأدب العربي وذلك تطبيقا للنظرية الذرائعية للمنظّر العراقي رزاق غالبي من العراق و د عبير يحيي من سوريا ٢٠١٩

- عضو اتحاد الكتاب المصري - أتيليه القاهرة -

- عضو نادي القصة إل مقة – اليمن / عضو نادي القصة – القاهرة.

- عضو منتدى البيت العربي الثقافي – المملكة الأردنية الهاشمية.

- عضو حركة التصحيح والتجديد والابتكار في الأدب العربي.

- عضو في أكاديمية الفينيق للأدب العربي وملتقى الأدباء والمبدعين العرب

- عضو سابق - لجنة أدب الرحلات في اتحاد كتاب مصر.

*الفنانة التشكيلية المصرية: **ماجدة رمزي**

لوحه الغلاف:

أحد أعمالها الفنيه باسم (الخير والشر) عام ١٩٩٦

- هي فنانة تشكيلية شاركت في الحركة الفنية منذ عام ١٩٩٠ حتى الآن.

- أقامت الفنانة العديد من المعارض الفردية وشاركت في العديد من المعارض الجماعية والدولية كما نالت الكثير من التكريمات المحلية والعربية والدولية.

- مثلت مصر في العديد من المعارض عربيا ودوليا.

- نالت العديد من الجوائز والأوسمة والألقاب أهمها:

- لقب "سفيرة للسلام" وفنانة لأجل السلام العالمي.

- ميدالية الريشة الفضية وعضوية الاتحاد الدولي لفنانين من أجل السلام ٢٠١٤ من مؤسسة "بيس تور" بشنغهاي.

- وسام فارس للفنون الشرقية من البرلمان الأوربي ببروكسيل ٢٠١٥.

- تكريم بدرع وشهادة تقدير ضمن عشر سيدات مبدعات على مستوى الوطن العربي بمهرجان المرأة العربية ٢٠١٧

- سفيرة لومبيني للسلام من دولة نيبال حتى عام ٢٠٢٣.

شكر خاص

لكل من ساهم في إخراج هذا العمل للنور..ليكون وليدا مكتملا دون تشوهات.

الأصدقاء الذين منحوني وقتا وجهدا في إبداء آرائهم الفنية والتصويبات والملاحظات..على رأسهم الأديب اليمني: محمد الغربي عمران،والأديبة المصرية المتألقة والتى أعجز عن منحها تقديرا يليق بما بذلته من جهد: أيفن الطبلاوي،والدكتورة الناقدة الذرائعية :عبير خالد يحيي.الشاعر الراقي والمدقق اللغوي :علاء عبد العليم محمد شكر الذي لم يدخر وسعا في تحرير هذا النص بكل رحابة صدر.والصديقة الشابة :شيماء عبد العزيز علي.

شكرا الفنانة التشكيلية المصرية العالمية المخضرمة: ماجدة رمزي. والتى أعتز بأعمالها الفنية والتى وهبتني لوحة الغلاف المعنونة ب(الخير والشر) وأخيرا الشكر الجزيل لسندي في الحياة أخي البروفيسور د.م.طلال العطار، ولابني المهندس عمر الرافعي.